القديس خورشيد

آراس حمي

الإهداء:

إلى صديقتي ريم الخيرات

الوجه الأول

كنت سأنتحر، أخذت هذا القرار وأنا أشعر بلذة عظيمة، كأنني استطعت خلق الكون، كأنني صرت حراً من كل شيء، ومني قبل كل شيء، صارت ذاكرتي فجأةً وهجاً جمالياً في عقلي، ذاكرتي التي تألمت أكثر مني، لم أتصور قط وبعد كل ما عشته أن أعيش لحظةً كتلك اللحظة، كانت لحظةً ماورائية مفعمة بحيوية الدهشة، لحظةً تختصر كل ما أجهله وأعرفه عني وعن الوجود بشعور لا أعرف كلمة تحدده وتصفه وتناسبه، ولكن بعد ذلك بدقائق حدث ما مزق كل شيء، كنت أفكر، لسوء الحظ، بما إنني سأنتحر فما هو الموت؟ وقبل ذلك، قبل هذا السؤال الذي غير معادلة الغيب الشخصية، ماذا حدث قبل أن أفكر بالانتحار؟ ما تلك المعضلة أو المعضلات التي قذفت بي في حضن فكرة الانتحار؟ ما الذي رمى شاباً في مقتبل العمر مريضاً ووحيداً في دوامة وجودية؟ ماذا عن المعرفة، عن العقل، عن البراءة، عن القيمة، عن القيم، عن النفس البشرية، عن الطبيعة، عن الله، وعن الخلود؟

سأموت قريباً، أو سأنتحر، بعد عدة أسابيع أو غداً أو ربما بعد ساعات، بحساسيتي البشرية أعرف جيداً أن الموت واقف خلف الباب، إنه قريب من جسدي وكينونتي قرباً واضحاً، قرباً لا شك فيه، لكن ماذا عساي أفعل الآن إن كنت في كل حياتي لم أفعل شيئاً يستحق الحديث عنه، لم أترك

ابتسامة عالقة في أي مكان في هذا الكون، لم يبتسم قلبي من الصميم، عشت حياة مكتظة بالألم والحيرة، حياةً مظلمة لا جمال في أركانها، حياةً لا حياة فيها، وكذلك لم استطع أن أقدم حياةً لأحد، كنت شديد الكسل في قلبي، لم أرى ما يثير فيَّ رغبة الاستيقاظ صباحاً ولم أجد ما أحارب من أجله، لم أتحرك قط، لم أحرك فكرةً ولا شممت وردة، العالم كان بالنسبة لي كهف لا صوت فيه، لا ابتسامة، لا صدى، عالم كله من سكون فظيع، لكنني الآن أرى العالم حاداً حدة السكين وقاطعاً كضرورة يقينية، وذلك لأنني فقدت كل أصابعي التي كنت أزحف بها في هذا العالم الهبائي، وفقدت أيضاً رغبة التفكير في المستقبل، إذ صرت عاجزاً، ضعيفاً، متعباً، لا شيئاً في مهب ريح حياتي الباردة، ومثقلاً برغبة قاتلة في افتعال قصة، أيّة قصة، كيفما كانت، حتى أرثي ذاكرتي أو لأموت فرحاً بحركتي، لكن حسناً لقد فات كل ما فات وسيفوت هذا الوقت المتبقي من الهباء والخيال والكذب والأنانية والحقد، هذه اللحظات المضرجة بدماء الأفكار والمشاعر والأفعال، لكن رغم كل شيء أتقبل موتي قبولاً تاماً، إنه الحقيقة الوحيدة التي يليق بها القبول وعكس ذلك حماقة، ولكن لا أستطيع تقبل موتي هكذا، بهذه الطريقة السخيفة.

هذا أنا، إنّه قلبي كما هو، يكتب صوته بدمي الذي لم أهدره على شيء، قلبي موسيقى لشخصٍ وقف خارج حدود

الحياة، وماذا لدي غير أن أقول لي إن هذا الوجود هو ما عايشته، ولا وجود أخر، وهذا أنا، جثة ستتحسس رائحتها في براد المشفى، إنه المكان الذي سأذهب إليه قريباً، لن أحنط كفرعون، لن تقام مراسم دفن وطنية، لن تثور الشعوب من أجل هذا الكائن، لن تبك عليَّ الندابات والقبائل، ثم وما قيمة كل ذلك؟ أرى الآن جسدي مرمياً في مكان ما ككيس نفاية ثم سأحمل إلى التراب ليعاد تدويري، لم يعد لدي الآن سوى دمي الذي أكتب به الآن، إنه لعنتي الغريبة، طريق موتي وحسرة حياةٍ لم أعشها كما يجب، هذا الدم المتسخ بصفاتي وطباعي.

فيما نطمح نحن البشر غير الزيف، لا دروب أخرى، لا جهات تمسك أيادينا الوحيدة، لا ابتسامات خلف المعاني، لكن من جهة أخرى الزيف هو ملح الحياة، لن تمشي الحياة نحو الغد إن لم يرش أحدهم هذا الملح ويمضي مع صوت قلبه وصدى خطواته، ومن هذا الزيف صنعنا قصوراً من المعاني والمفاهيم والمشاعر والأفكار والأنظمة والقوانين واللحظات والغايات والمؤسسات والتعاليم والأهواء والأناوات، حتى التراث قطعة مزيفة في متحف الحاضر، ذهبنا وراء سوط الزيف لنستيقظ، لننام، لنفعل، لنقول، لنمضي، لتعاش الحياة، الزيف بيت الخير والشر، موسيقى الفرح والحزن، روح الجماعات وعزلة الفرد، ضجر

الطبيعة وضجرنا من الطبيعة، نحن نكذب وسنكذب لننا ببساطة بشر، والبشرية أدمنت الزيف حتى صار قيمة في ذاته، قيمة صالحة للاستهلاك، قيمة أصيلة، ونحن وبهذا الطموح السخيف المضحك سنموت في الأخير.

إنني أتحدث عن الإنسان الذي يعيش حياته، تحت ضوء الذات، تحت مخالب المكان، تحت ثقل الزمان، هذا الذي يجرب نفسه في كل لحظة حية وكأنه هو الوحيد الذي يفعل ذلك، يجهل تماماً الآخرين، يجهل ذواتهم، إنه الوحيد الذي يعلق قلبه على باب الوجود، هو صورة مزيفة عن نفسه لأنه يحمل أحلام الوجود فوق ظهره وهو كله يقين إنه الوجود ذاته، إنه كاذب، مزيف، غريب، هش، صاعد نحو حتفه -المصنوع مسبقاً- بأطنان من النسيان والجبن، هذا الإنسان وهو أنا، إلا أنني أرى ابتسامة الكذب الخبيثة وضحكة الزيف العالية، هذه طفرتي الخاصة، حدثت تحت جلدي، تحت بصيرتي، كنت دائماً أقول للصمت " أريد أن أرى العتمة " وها أنا ذا أرى كم هي شديدة هذه العتمة في جسد الوجود، الأمر بمثابة أن تكون غائباً في المشهد إلى الأبد، بالغربة، حتى ترى الأبد في تفاصيل الحياة، وهذا كذبي الأصيل،

ثمة سؤالٌ استفزني كثيراً في الماضي ألا وهو لماذا يكذب الإنسان، والآن أرى إنه يرى في الكذب ضرورة، ثم تتحول هذه الضرورة إلى واجب، ثم إلى عادة، ثم إلى ثقافة، ثم إلى عبودية، ثم إلى طغيان على الذات وعلى الآخرين، لم نتدرب على نزع جلودنا كالأفاعي ولذلك لا نتوقف عند مرحلة الضرورة لنذهب إلى ضرورة جديدة بل نجتر الهوى من أجل الهوى، ومن جانب آخر يكذب الكاذب لأنه يحب أن يرى أكاذيبه في المرآة، ولأنه يفضل الكذب اللذيذ على الصدق الثقيل، ولأن الأنانية سلطة مستفزة، وأحياناً يكون مجبراً على ذلك، حسناً، أنا أيضاً أكذب وسأكذب طبعاً، لكن أكاذيبي صادقة فأنا الذي ينظر إلى العتمة ليصارع وحوش الظلام، ليتعارك مع الأصوات الصاخبة في داخل هذا الجسد المتعب، لا رشد في كل ذلك، بل ليس ثمة رشد في أي شيء، ثمة سكاكين وطعنات وجروح.

لا نقطة ارتكاز ثابتة، كل الأبراج السابقة سقطت، ليس على ذلك أسف، فلو استمر لكان خازوقاً في مؤخرة الزمن، لكننا نعود لنخلق أبراج كاذبة جديدة، لنراقب أنفسنا في ميدان الحماقة والسكون، لنترقب الفناء العالي بأقل قلق، بأقل قيمة، بمقاومة هشة ضعيفة، نحن العناكب في شبكة هذا الكون الغريب، وفوق ذلك نصنع الشبكات لأنفسنا ولغيرنا، لكن حسناً فلنفعل، ماذا يمكننا فعله غير ذلك، يالضعفنا المحزن، كم نحن ضعفاء، ضعفاء كالنمل أمام الفيل، ولسوء

حظنا فيلنا هذا ليس رحيماً، هو ليس ضخماً كما نرى ونعتقد، بل هو أصلاً غير موجود، ونحن نحاول التقرب منه لأننا ضعفاء، قرابتنا أيضاً ضعف، هزيمة ثقيلة، هروب من ضعفنا الأصيل الذي نجاهد لإخفائه تحت نفوسنا، نحن كاذبون وضعفاء ومزيفون حد النخاع، الجميع هكذا، لا ننطق بذلك إلا للحظات معدودة في حياتنا، وحدهم المهمشون والمنفيون والمذنبون والضحايا صادقون حد رمي الحياة باللعنات، فتحت الركام والرماد يتكلم الوجود، في الهامش، عند اللغة الأصيلة والوجود المرعب.

بقشعريرة القلب أرى الكون دونما غاية، بقشعريرة عالية التوتر يهتز ضميري، كيف يمكن ألا تكون لهذه الحياة طريقاً واضحة وصريحة، أن يختلط العبث بكل خلاياي، أن تكون معرفتي هباءً من محض هباء المقولات والصور والذاكرة والأثر.

الزيف صناعةً بشرية خاصة، لكل مرء زيفه الذي يلعب معه لعبة الحياة والموت، لعبة الحب والكراهية، لعبة الاقتراب والابتعاد، يصبح هو الذي يحمل الكون فوق ظهره، إنَّه الوحيد الذي يشعر بثقل الكون، يرمي خطواته وهو يراعي مشاعر الكون، إنه رسول صوت الكون، يتحدث ناظراً في تخيلات المستقبل وفخاخ التاريخ وجبال الحاضر، هو

الحضارة، يعيش قصص حب صاخبة، يطمح في أمجاد أعلى من الهباء، يحاول رفع البحر نحو السماء وتنزيل السماء لتحت البحر، يجري في مسابقات النهار ويداهم بيوت الليل، يجر المشاعر إلى حلبات الدراما والحرب، يبكي بقوة ويضحك بقوة، يسخر بطاقة عظيمة، يثرثر في كل ميدان، يثير كل الشكوك حول كل شيء، يراقب العيون وهي تنظر في حياتها، يسخر كل شيء لغايته، لهباءه الذي يفهمه جيداً، ثم يموت كأي شيء آخر، خالياً من الأثر، منفصلاً عن الحبل الحياة السري، موته مثير للسخرية وهنا الفاجعة، لست أرغب بعودة الفيل والغاية الكبرى والزيف الأكبر والكمال المضحك لكنني أنتحب على موت هذا الإنسان الذي لم يعد لموته جماليةً عظيمة، كأنه عاش فقط ليموت من أجل شيء ما خفي، خارج نطاق فهمه، إنه ليس شخصاً قادراً على العيش، الحياة شيء مختلف عنه، لم يعش، لم يسمع صوت الماء وصراخ السماء وعواء الطبيعة، لم يكن شخصاً، الوجود لا يراه شخصاً يستحق رفع مسؤولية الزمن، إنه لا شيء يلعب دوراً في مسرحية ما، في خيال ما، غائب وإن كان موجوداً، ليس ثمة معنى أصيل، ثمة أكاذيب تسخر الدوافع، وخلف الدوافع غبار أعمى، هباء شرس، إنها جغرافيا الهباء هذه الحياة، كل شيء مصيره الزوال، الفناء لديه أنياب حادة، لكنه هو لا يرى كل ذلك، إنه أعمى، ولا يريد أن يرى، رؤيته تكفيه ليفعل ما تفعله الحشرات مع الأشجار، يستطيع أن يستمر في هذه الديمومة، وفجيعته الكبرى إنه لا يدري كيف سيموت،

سيموت مؤكداً، أينما هرب فلا مفر، يدري بحتمية ذلك، يدري جيداً، لكن كحلم غير شخصي، لا يعنيه الموت بتاتاً، يراه كشيء يتعلق بأمور شخصية لأشخاص آخرين، هو خارج نطاق هذه القضية، ويريد أن يكون دائماً كذلك رغم إنه يعرف إنه سيتحول إلى مجرد جثة صفراء عفنة، هو لا يفهم مشهد الموت.

الإنسان أعمى أمام موته الخاص، يتجرد من كل خصوصيته مقابل أن يخرج من جوفه هذا الهلع المزلزل، لم يعد يهمه أية ضرورة، يرغب فقط بتجرع الوهم على مدى كل اللحظات والدقائق والأيام دفاعاً عن السر، سر موته الشخصي، رائحة جثته، ونعيق الغراب فوق قبره، إنه السر المستور خلف أعظم الأكاذيب، يالهول هذه الصناعة الوجودية، كم عقلاً سرق بالخوف، بالخوف الذي دوره في الحياة صناعة السجون ونحت القيود في معصم الحياة، كم قلباً ضاجع الفراغ هرباً من رهبة الموت الخاص، الفراغ اللذيذ في رؤية السجون قلاعاً عظيمة، كم شخصاً لم يكن هو، كان نسخةً مكررة من ملايين النسخ التي تصنع في مصانع الخرافة والرهبة، تحت رعاية الزيف، تحت سقف مفاهيم وأفكار محددة جاهزة ليصبح هذا اللاشخص مجرد آلة نقل للأكاذيب، مستسلماً، فاقداً لموته الخاص وبالتالي يشعر أن ثمة طاقة تحميه من محيطه ومنه هو، الهو الذي

هو جوهر وجوده، ألمه ليس بليغاً، هو لا يتألم، يهرب من الألم، أي لا يشعر بقلبه، ليس لديه قلب، ألمه مسروق، شعوره بالحياة يراه محض نزوة عابرة، لا تعنيه الحياة، إنها مجرد محطة تافهة، لذلك هو لا يستطيع فهم ملامح الحياة، وإن كشفت له الحياة وهمه يتقيد أكثر بأكاذيبه، كل ما يُكشف له يصبح وسيلة لطغيان الكذب على قلبه وللوصول إلى حتفه المصنوع من خياله وفي خياله، حقاً إن الحرية مخيفة، لكن أشد المخاوف عند هذا الإنسان أن يرى الفوضى، فوضى المعرفة، فوضى الأفكار، يخاف من اللامفهوم في الطبيعة والنفس، من الخيال الحر، من العقل الحر، من الجنون الحر، من الحرية كلها، يرغب دائماً أن يكون نقيض الكون، بالقانون، بالسياسة، بالقيود، بالتراث، بالأمجاد المنتفخة في معدته المهترئة، إن هذا الإنسان بطريقة ما يظن نفسه عارفاً بكل شيء، مدركاً كل شيء، متفهماً لكل شيء، وهو أبعد من أن يفهم هذا الشعور الطاغي على جمالية الحياة في داخله؛ لذا يستطيع الدفاع من أجل هذا الشعور بكل ما به من قوة، حتى لو كانت هذه القوة فيها موته، هنا يصبح موته جميلاً في نظره، لأن نقيض الشعور بنسبة له هو أشد من الموت، هو في الصميم فقط يريد أن ينجو بنفسه من تهالك سقف الذات لهذا لا يجد إلا هذه الطريقة البدائية في الهرب، فلا يهرب إلا من حقه الجمالي، آه لكم أشعر بالشفقة على هذا الكائن، إنه ضعيف جدا أمام الحياة، لن يستيقظ في صباحه دون جرعة مخدر من اليقين، لا يكاد يستطيع تحريك أقدامه

دون أن يهذي عن قوة روابطه العميقة بتلك القيود المصطنعة، لا يريد أن يكتشف أي شيء في الحياة، ليس لديه طاقة تحميه من الرياح العظيمة، فهو مفخخ بجمال مزيف، جمال متلصق بتلك الأكاذيب، جمال أعمى، جمال حجري موضوع في القلب، لا يستطيع القلب أن يخفق وهو مثقل بحجارة تمنع عن النبض خفته، لن يكون القلب قلباً ما لم يكن قادراً على ضخ الحياة المتجددة في الإنسان، لكنها كذبة المألوف، التخدير التاريخي، لذة الأمان المبتذلة.

هذا العالم الغريب يطعننا كثيراً من حيث لا ندري، كل طعنة نافذة، وكل نافذة عين على عالم آخر، وكل عالم آخر غبطة السر في فؤادنا، نثار كثيراً، يضربنا الهواء، تحرقنا النار، نغرق في الماء، تلعب بنا اللحظات والألوان والأحرف والحركات، نكتشف دائماً إننا لم نصل بعد إلى العالم الحقيقي، كأنه ليس ثمة عالم حقيقي، كأننا نكتشف فقط.

الموت، الموت، آه من الموت، انشغلت بالموت كما ينشغل الموت بالقلوب، كنت كلما اتذكر إني أتنفس بحثت حولي عن رائحة الموت، هل أنا وحدي الذي أمتلك لذة اخترقها الموت منذ أن شعرت بالوجود أم إننا جميعاً مشغولون بالموت مثل حجارة تنظر نحو القعر وهي تسقط، ثم - في

البدء- لم يجب أن يوجد الموت، لا بشعورنا به فقط إنما كمرحلة ضرورية في مراحل الزمن، لم وجد الموت؟ ولم شكل نفسه جزءً صادماً وقاطعاً في شؤون الشعور بالوجود؟ كيف ستكون الحياة لو لم يمت أحد منا، كيف ستكون لو كان الأبدية مزحة يتم إلقائها ونحن نمشي نحو الغد الدائم، نحو اللانهاية، لكم حملت التراب لألقي عليه أسئلتي كمن يكتشف لتوه وجود الشوارع خارج المنزل، وجود الفضاء خارج الأرض، عمل الحركة داخل الصمت، لعب الريح في أرض الهواء، ثم أذهب أبعد مع أسئلتي نحو أسئلة جديدة، وفي الأخير أرى سؤال الموت سؤالاً كبيراً مقارنة بأسئلتنا الأخرى عن الوجود، بل حتى أكبر من سؤال الحياة ذاته، إذ إن لم يوجد الموت ما وجد سؤال الحياة، إنه جسد السؤال ذاته، جسد كل الأسئلة، لا تنبثق روح التساؤل في المرء إن لم يفهم إنه سيعانق الموت، والحياة ظل الموت، الظل الأقل غموضاً، والأبد هو الحركة بين الموت والحياة، لكن فلأترك الأبد فالموت هو الأصيل أصالة الكينونة بنسبة لي، أما الكينونة فهي تواصل وجودي مع الموت، تواصل حاد، غريب، صاخب، لزج، مشدود، يقظ، بلغة الصمت النقية الجامعة لكل أنواع الصمت الأخرى، أن أكون يعني أن أموت، أن أموت يعني أن أعيش، أن أعيش يعني أن أقلق رغماً عني، فالقلق هو صوت الموت في قلب الإنسان، يهتز كأنين فظيع، مستفز، عنيف، كشعور فقدان الهوية، كدوار البحر، كزلزال بقوة ٧ ريختر، لا يعود ممكناً التفكر في شيء آخر غير العدم

المتوحش، تقول لك الأرض بتهكم مستبد " أنت ستختفي، لن تعود، لا شيء بعد ذلك، لا شيء مطلقاً "، إلا أن المرء عليه أن يتثبت رغم القلق، لكن لا بالإنكار والإلغاء، إنما بالتقبل والاحتواء، أن يكون لطيفاً مع قلبه حينما يأخذ القلق حيزاً من الحوار الداخلي.

إنه الموت أيها الإنسان، العالم بكل اكتشافاته يوضع في جرة الموت الصغيرة، هذا الإعجاز الذي نقاومه بالموسيقى واللذة والحب والجنس والفن واللغة والشعر، هذا الذي يتجاوزنا بلمح البصر، لا تعود للخصوصية القلبية أية قيمة متعالية، كل أشكال المقاومة المختلفة تختفي مع اختفاء نور الحياة في القلب، هكذا ببساطة طاعنة، ببساطة صادمة، الموت أغرب لوحة في متحف الحياة ، ونحن أعجز من أن نثير تساؤلات الموت حول قيمتنا الحياتية، عاجزون أن نحيى من أجل الحياة بكل ما بنا من حياة، ثمة دائماً صوت الموت في صورنا وأصواتنا وأفكارنا، إنه المتطفل الأبدي على كل شيء، على لهفتنا البريئة، على رغباتنا، على خيالاتنا وأحلامنا، علينا كما نحن، كائنات ستموت لأنها ستموت، دونما تفسير يحقن دماء قلوبنا، دونما رحمة بلذتنا الذاتية من أجل الذات، لا ذات أمام الموت، في الخيال، في القلب، في العقل، في هذا المشفى، الذات كذبتنا الأصيلة عنا، لا أحد يرى الموت، نحن غارقون في ذواتنا المقاومة، حتى حين يرى الإنسان جثة لا يرى فيه صوت الموت،

الكون ممسكٌ بأيادينا الصغيرة حتى لا نرى صوت الموت رغم وضوحه المتجلي أمامنا، فلو عدنا إلى البداية، إلى الولادة، في البدء كان الموت ثم الصرخة أو الانفجار ثم الكلمة أو الصورة، الموت استطاع الانطلاق في سباق الحياة قبل الإنسان أو البصيرة، كان متميزاً، على رأسه خوذة الوجود، ثم فرض علاقته المرتبكة بنا، ثمة الآن الرهبة والـ بعد، لكن ليس بيننا الـ قبل، لا يعود للميت بصيرة عن حياته لكنه وهو في حياته له بصيرة عن الموت ـ إن كشف لنفسه أكاذيب نفسه ـ، وبيننا أيضاً حربٌ طاحنة على البقاء قرب اللهفة، قرب غياب الموت، قرب المدى والصدى، قرب الهامش، قربنا كما نحن، دون أن نحاول تفهم الوجود، لكن ما هو الوجود إن لم نمت هكذا، يعود إلي الوجود خلف اللغة، خلف النار والماء، إنه أساس كل تبادل صوتي مع الموت، المدى أيضاً كذبتنا، نحن نبذل قصارى جهدنا في الابتعاد عن الحياة والموت، يمكننا أن نعيش في عتمة الكهوف كل حياتنا فقط من أجل قيمة البعد، من أجل جعل البعد قيمة علية تشعرنا بالحياة والموت الذين نهرب منهما، أي نمارسهما خلف صورة البعد، نحن نحب العماء، إنه لذيذ، ننقاد ببساطة، نريد في كل لحظة أن نكون عميان، خلف هذا البعد وهذا العماء ثمة قلقٌ مرعب وهو العدو اللدود للإنسان، الإنسان يخشى المسؤولية لأنها من الموت، الموت هو الوجه الحقيقي للمسؤولية، أي لحظة عدم الحدس أو لحظة توقف القلب عن ضخ الحياة قد تكون مجرد لحظة عادية، نهاية بديهية حتمية، لكن ما هو غير

عادي هو إنه الدليل القاطع على أنه كان هو المسؤول الوحيد والحقيقي لكل حياته التي عاشها، إنه برهان قيمة القلق أو برهان على حق الحياة على الكائن، ثم بعد أن يصل إلى هذه النتيجة سيندم ندماً مراً وسيحن حنيناً صاخباً، سيشعر بفجيعته الكبرى على نفسه، ستأتيه نوبة القصوى للبكاء، حين يريد المرء أن يبكي ولا يستطيع، حين تتفجر هذه الدموع خلف العيون، وفي ذاك التدفق الضخم للتخيل سيشعر بالفجوة التي بينه وبين حياته، لقد فات الأوان تماماً، لم يعد ممكناً فعل شيء غير الألم، سيقول ليت وليت، سيتنهد كثيراً، سيشعر إنه لم يكن هو الذي عاش هذه الحياة، هذه ليست حياته، لكن لو تقبلنا فرضية العودة وقمنا بإعادته إلى حياته فسيعيش الحياة ذاتها تماماً، كم إن الإنسان يثير على نفسه الشفقة في هذا الوجود، إنه ضفدع مضحك، دودة غبية، سلحفاة سخيفة، خنزير أحمق، دب تافه، حيوان فيه كل الصفات المنحطة، هو الوحيد الذي لم يتطور بعد ليصل إلى عالم الجمال، يخيفه الجمال، يخاف من أن تكون الحياة جميلة أكثر من اللازم فحينها سيصبح الموت في نظره أكثر قسوة، إنه أضعف من أن يعيش الحياة ليعيش موتاً عظيماً، الشبق خديعة مخيفة بنسبة لخياله المريض بالصورة المرعبة، الحب، الجنس، الموسيقى، الألم، الصدق، الحرية، المغامرة، التعبير، التفكر، التجربة، المعرفة، يهرب من كل ما يرتبط بالحياة حتى يهرب من الموت فلا هو يعيش ولا هو يموت كما يجب أن يموت، هذا هو الجبن بعينه ولسانه، جبن الأسطورة في تاريخ العقل

البشري المريض، جبن العتمة، جبن المبرر بالأكاذيب والضلال والعمى، ما الإنسان إن لم يصنع لقلبه تقديراً عظيماً، لم علينا أن نعيش إن لم نعش حقنا في صراع الكون مع ذاته، في داخل حلبة الجمال، مع الهدوء والصخب، مع الحزن والفرح، مع الحب والكره، مع الموت والحياة، مع الحكمة والجهل، بين أذيال العتمة وأيادي الضوء وصوت الزمن وضجيج المكان، والمكافأة هي ذاتها، الحياة مكافأة الحياة، لا شيء حول ذلك، الحياة نعمة والموت أيضاً نعمة، لكن كيف نفهم الجمال ونحن لم نلمس بعد قعر القلب وسطح الوجود وحكمة الصدى، كيف نفهم ونحن نجر الغبار إلى بيوت القيمة والمعنى والحق، ونحقن الحياة بالموت والموت بالحياة ثم نقف خارج المشهد ننظر إلى مشهد سقوط الجمال فوق أعناقنا القصيرة، ما السماء الأولى والأخيرة إن لم تكونا أرضاً عظيمة في خيال حكمة المادة، لكنها حماقتنا الصلبة، لم نقاوم زيف ادعاءات التاريخ على مسرح الحاضر أو الذات، ثم إننا نتمدد، أسئلتنا، أجوبتنا، صورنا، تخيلاتنا، مناهجنها، بصائرنا، التاريخ امتداد، لا نستطيع بسهولة الفكاك منا، وهنا إرادة الجمال، حين تعترض على الصورة التي تم التقاطها في عتمة الوعي برغبة أن تكون خارج هذه السيرورة التاريخية، حينها يبزغ أول نور الجمال في بصيرة الحياة، ما الجمال إلا أن يصنع الإنسان من قلبه متحفاً فنياً عالي المعنى والقيمة والحق، ثم يمدد قلبه نحو العالم.

من جانب آخر، خلف موتي العظيم ثمة سيرورة طبيعية لا تهتم إلا بطريقها، هذه السيرورة تعرف غايتها الموحدة أو لا تعرف، هي تمشي فقط وأنا حين أتأملها بصيرتي تلصق بها فكرة الغاية، لكن بما أنني من الطبيعة فهل هي التي توحد بين فكرة الغاية والسيرورة؟ إنها سيرورة، تمشي فقط، نحو مجهول ما، نحو اللاشيء الطويل منذ البداية، لا تهتم بذات الغاية إنما بالطريق، لا تهتم بالحقيقة إنما بالمصلحة، أنانيتها طبيعية وليست عقلية بشرية، أنانيتها غبية، تريد فقط أن تستمر كيفما كان الأثر، دون الشعور بالذنب، دون الشعور بالقيمة، دون الشعور بالحق، دون الشعور بالغاية، دون الشعور بأي شيء تنظيمي، إنها فوضوية في ذاتها، قد تنهي كل شيء بعجرفتها وطيشها، قد تمارس أفظع الجرائم أو ربما هي تمارس، نحن لا شيء عندها، ترفع بعضنا وتنزل بعضنا بعبث سخيف، ليس لدينا أية معنى في سيرتها الذاتية، نحن وسائل، جزء من الهباء المحض، وهذه السيرورة لن تقتلني، نعم أنا لن أموت تماماً، سأموت نعم، ما سيموت فيَّ هو الاتحاد أو الكينونة الشخصية أما جسدي أو الحياة التي في جسدي ستتفتت وتتبعثر وتنثر في الطبيعة دون أن تخرج من دائرة الطبيعة الحية، سأعود إلى الطبيعة الأم لأعيش بطرق أخرى، كل خلية لي ستكمل مسيرة سيرتها دوني أنا الكامل، أي سأكون موجوداً دون أن يكون لوجودي موهبة الحساسية، هذه

الحساسية التي تفتح لي أبواب الحياة بين الماضي والحاضر والمستقبل، بين الذاكرة واللحظة والخيال، هي عماد الكينونة، منظمة الموسيقى الشعورية في عقلي، هي أنا في صميم حياتي الغريبة، لكنني سأموت، هذه السيرورة قتلتني في الحياة، صنعتني كائناً ينتظر موته بعظامٍ هشة، بأعضاءٍ ضعيفة، بملامحٍ عنيفة، بقلبٍ ينبض أكثر من اللازم، بمرضٍ لعين، ربما فعلتْ ذلك حتى أعود إلى الطبيعة الأم بسرعة، هي الآن تبرر لنفسها فعلتها الغبية العنيفة، ليس لي موقف من هذه السيرورة، ربما في الغد، أحياناً أكون معها، نضحك معاً، نبني الحبكات من أجل تلك الطريق الغريبة، واحياناً أخلق العقد بيننا حتى أسمع صوت الأثر العنيف لهذه السيرورة في مشاعر الحياة، لا أدري كيف يمكن أن تكون المعجزة لكنني أرى إن وجد حل لهذه المشكلة فستكون معجزة عظيمة في الكون، إنها أكبر مشكلة يمكن أن يتصورها عقلنا البشري، ونحن إلى الآن، كما نرى، عاجزون تماماً، ربما لست عاجزاً تماماً، إنني أذهب نحو الأم، نحو الطبيعة، سنتحد مجدداً.

أأقول أن الموت علاج؟ أرى ذلك، قد لا يكون علاج الجميع، الذين إلى الآن ترهبهم فكرة الموت، لكنه علاجي أنا، أنا الذي قد تحرر من جميع أنواع المخدرات الطاغية بعد كل هذه العتمة الطويلة، أرى ببلاغة عزاء القلب، إنه الاحتواء الكامل لحساسيتي المنتفخة بالإنسانية الثقيلة، الاتحاد عزاءٌ

صادق، الموت طفرة جمالية في حياة الأحياء، لم يكن سهلاً ذلك، عشت كثيراً من أجل هذه اللحظة، لهثت كثيراً، فقدت كثيراً، بل جردتني من أثقل الثياب وأضيق الأحذية حتى أمشي نحو موتي، نحوي، نحو نور المابعد، وها قد شارفت على النهاية، كثيراً ما ظننت في تجاربي السابقة أن أصدق النهايات هي النهايات الكئيبة، الباردة، الصادمة، المجرحة، المفجعة، المتوحشة، كنت أجهز قلبي لطعنة النهاية بكل شجاعة إلا أنني الآن وبعد هذا التبصر العالي قد وجدت أن النهاية فنٌ جميل كما البداية، لا فرق بين الطفولة والشيخوخة، لا فرق بين قبلة الحب الأولى ودمعة الفراق الحارقة، لا فرق بين الولادة والموت، ، ولا بين الوجود والعدم، ولا بين الجرح والابتسامة، لا فرق بين ما أقوله الآن وما يقوله أحد ما الآن مع نفسه، إنه الصادق وأنا أيضاً، إنه الصدق المشترك.

الموت بحد ذاته حياة كاملة في لحظة واحدة، يحدث ذاك التمزق الهائل بين الحس واللاحس، ذاك الفراق العظيم، تلك هي اللحظة المفارقة التي تهزنا في الصميم إلا أنها لحظة مثل أخرى، بل كل لحظة في الحياة -كيفما كانت- هي مفارقة عجيبة، لكن كل لحظات الحياة تأخذ بريقها من تلك اللحظة، الفن ينبض لأن تلك اللحظة موجودة، من رأى الموت صار فناناً، إنساناً، أصبح موجوداً في جغرافيا الجمال، لأن الموت حقيقة تستحق التقدير، لأن الموت علم

لاكتشاف الحياة وعلم لصناعة الحياة، وعلم لتعيش اللحظة في قلب الإنسان، وليعيش الإنسان حريته أو حياته.

لكنني في لحظات ما، وبشرود بارد، أنظر خلف الحياة والموت، أي في قلب الطبيعة، وأفكر " لم كل هذا أيتها الأم؟ لم الحياة؟ الحياة خطيئة الطبيعة، الطبيعة هي المذنبة الوحيدة في قصة المعاناة والعبث، لم يكن عليها أن تخسر فرصتها الثمينة، ليس كل كوكب ملائم لوجود الحياة، ما كان يجب عليها أن تغامر بنفسها وتراهن على صناعة جنون كهذه الحياة المعقدة، الصاخبة، كثيرة الفوضى، برغبة السلطة، فقط تدمر هذه الطبيعة مستقبلها وكل مشروعها الغريب، إلا أنها طائشة ومندفعة، غبية، تحب ثرثرة الدراما، تثيرها غرابة التواجد في الوجود، فلو كانت تمتلك القليل من العقل لرفضت خيالها الصاخب وسكنت مع هدوءها الثمين، لو فقط عرفت أن وجود الزمن سيجعل من الهواء دخاناً يلوث رئة الكوكب، وأن وجود المكان سيجعل من الجغرافيا ساحة حرب أبدية لتقبلت طاعة السكون بروح متفائلة، لكنني بعيداً عن ذلك لا أفهم ما ضرورة العقل في هذه الصناعة الغريبة، لم صنعت لنا عضواً ينافسها على الإرادة، عضواً حراً من قيود السلطة ونقيضها، من قيود المستقبل والماضي، من قيود إرادتها، أهي هشة لهذه الدرجة؟ إنها تثير فيها تساؤلات لانهائية، أفكار كبيرة، أكبر من الكون، خيالات عارية من حجب البيئة، وتصنع لنا

حيوات مختلفة، تجارب صاخبة وعنيفة، وعقد غليظة، وقصص هائلة، والكثير من الإضاءات التي لم نستطع رؤيتها باللغة بعد، أليست هذه الأفعال التي تحرف طريقها المستقيم عجيبةً كل العجب؟

إن الموت -حين ننظر إليه- فكرة، فكرة تجمع كل الأفكار والمشاعر المتعلقة بالصدمة، مثل الخوف والفزع والنفور والضعف والعدم واللاوجود والوحدة اللانهائية والضياع والفراغ والسلب والهجر والغرق والاضطهاد واللاحضور، تجمع كل تلك التصورات التي يكون الإنسان قد كونها من خلال اللغة والخبرة الشعورية والهلوسة المرضية من غرفة الأثار وتضعها خلف التصور الإنساني عن الموت، فحين يسمع الإنسان فكرة الموت أو يشتم رائحتها تتدفق تلك الأفكار والمشاعر في رسم حُكم متسرع في المخيلة، هكذا يكون وقع في حفرة عميقة بعيدة.

لكن هذا الموت هو فكرة والفكرة تقتل الموت، طبعاً لا تبعدنا عن الموت، إنما تجعله حقيقة جمالية ونهاية قديرة، ولكي نقتل فكرة الموت السلبية علينا إما تغيير العالم أو تغيير أنفسنا، طبعاً لن نستطيع تغيير العالم، لكن نستطيع تغيير أنفسنا مع وضع مسافة بيننا وبين العالم، إننا نتغير كلما

فكرنا أكثر في الموت، الموت أحق قضية في الفكر، ما كنا لنتطور ولن نتطور ما لم نفكر في الموت، علينا أن نفكر فيه كحدث رئيسي في حبكة مسرحية حياتنا، كظل للإله، كسؤال ضروري، كالسماء التي تأخذ نصف حقها في رؤية الكائن الذي يمشي مع الزمن، الموت هو الفكرة الأعمق من بين كل أفكارنا عن الشيء، وهو نطفة الجمال الأولى في وعينا، لا يوجد جمال دون موت، لا إمكان حقيقي في صناعة الجمال ما لم يكن الموت لوناً من الألون في وعينا بقصدية الجمال فالفنان وهو يتفنن يؤمن بالموت بمعرفة عنيفة، بل إنه قبل أن يخلق الفن يكتشف فجأةً أنه سيموت يوماً ما، فيحاول كشف جهله بالكيفية المادية والشعورية لموته القادم، ثم يبدأ بالجري تحت الضربات الشعورية للموت، هو يتعارك مع إيمانية الموت بأسلحة يخلقها في حلبة اللحظة.

لكن رغم كل ذلك أحياناً نقع في حفرة اللاموت مع الأحكام المتسرعة والمشاعر الحساسة والتمثلات اللاعقلانية، ربما الواقع هو المحرض الأساسي على العذاب وهو الذي يدفعنا نحو تلك الحفرة، رغم إننا حين نفكر نرى بوضوح أن العذاب هو تأويلنا عن الحياة كيفما كانت تلك الحياة شديدة الصعوبة، السجين يمكن أن يكون حر القلب والفكر وهو في السجن، هذه حكمة القدماء، لكن الآن لكي يكون الإنسان حراً عليه أن يحارب حرباً كبيرة في سبيل حريته، فالحرية

صارت شعلة ضوء بعيدة جداً عن كائن مسجون داخل نظام يتحكم فيه بعبقرية جحيمية، نعم أقصد أن الحر هو القادر على التعافي من العذاب فالشقاء في الأخير مجرد تأويل عن حياة الشخص الخارجية.

من جانب آخر ثمة شقاء ذاتي لا يفهمه الإنسان بسهولة، ذاك الشقاء الذي يصاحب اللاوجود، أن يكون جزءً من حركة عمومية، فالإنسان يولد مقيداً بالتمثلات الخارجية إلى أن يفتح أبواب الكينونة فيطير حراً من الشقاء العمومي في أفاق المعرفة والخيال والتأويل، أي أن يصبح كوناً صاخباً بالحياة بمفرده، لكنه لا يطير إلا بعد أن يلامس القعر بالألم والعطف، ألم وعطف ما بعد الشقاء ذاك، ثم يحلق خارج جاذبية العدم، العدم الذي هو أسخف تأويل لما بعد الموت، الذي -بالتالي- يرمي ظله على حياته ويسجنه داخل قضبان عقائدية، القضبان التي كانت تأويلات بريئة لكنها تصبح حديدية ما أن يوجد المابعد في خياله، تحديداً أكثر أقول أن الإنسان لا يجب أن يتمثل بل أن يعبر، أن يتجلى بعملية العبور مع الزمن، عبور نحو كل لحظة قادمة، أي أن يتزمن، أن يتجرد من أثقال الأفكار والتصورات والظنون، إلى حين وصوله إلى الموت خاتماً بذلك كتاب حياته في خلق نوع جديد من الإنسانية.

ثم إن العبور خطة حكيمة في خلق احتواء جمالي بين الموت والحياة، إذ تموت اللحظات وتولد على التوالي، أي نحن نموت ونحيا مع كل لحظة، أي نخرج من عالم وندخل في عالم جديد، لا العالم الخارجي فقط، بل العالم الداخلي أيضاً، بديمومة التغير الذاتي، ونشعر بالنجاة الدائمة من هزيمة الضعف القاتلة، يختارنا الزمن ونختار الزمن في كل لحظة قادمة، نختار بعضنا وننجو معاً من النهاية الأخيرة نجاة الانفتاح على النهايات القادمة والبدايات القادمة، أي كل بداية نهاية وكل نهاية بداية، إذ نحن في الوقت ذاته نموت في اللحظة التي ذهبت وسنموت في هذه اللحظة الراهنة واللحظة القادمة أيضاً، نحن نموت دائماً ولكننا نحيى مع الموت الدائم، لا أبالغ حين أقول إننا نحيى على الموت، نتغذى على الموت، فموت الصديق يغير شيئاً في بوصلتنا الحياتية، وموت الحبيب يهز الجهات، موت الصداقة يفتح لها باب القيامة، موت الحب يفتح لنا باب الغربة، موت القيمة يفتح لنا باب الثورة، موت الكينونة يفتح لنا باب الرحيل، موت الحضارة يفتح لنا باب المعرفة، موت الغريزة يفتح لنا باب النشوة الهادئة، موت الموت حين نحلم يفتح لنا باب الجمال، موت السعادة يفتح لنا باب الوجود، موت الوجود يفتح لنا باب السخرية، موت المعرفة يفتح لنا باب السقوط، موت القوة يفتح لنا باب النفس، موت النفس يفتح لنا باب الفكرة، موت الفكرة يفتح لنا باب اللغة، موت اللغة يفتح لنا باب العماء، موت الحياة يفتح لنا باب السكون.

بحق الحياة ماذا نريد حين نفجر قنابل اللامعقول والشك والرهبة والغرابة وحب المعرفة والتجاوز الذاتي، عما نبحث خلف عظامنا العادية، خلف لحومنا الطبيعية، خلف غريزتنا، خلف وجودنا التافه في كون ذاهب نحو التقلص أو نحو فكرة النهاية المحتومة، لم علينا أن نفكر في الثقوب السوداء، ماذا نريد؟ لم امتلكنا القدرة على التفكر في الموت وكأننا لسنا حيوانات بهيمية تريد نقل الجينات فقط، كأن ثمة ما يستحق التفكير، كأن التفكير جزء ضروري في جوهر الطبيعة، كأن الموت لغز، ثم ها أنا أذهب أبعد، أتعالى، أتخبط في متاهات الخيال والوعي، أعي الخيال وأتخيل الوعي وأخلط بينهما لأصل إلى صفرٍ ذاتيٍ أحدث من أصفارنا السابقة في تاريخ الوعي البشري، عن طريق رفض الواقع العملي العادي والتشبث باللغة والفكرة والموت، إنه دوار الكبرياء البشري، في الخيال يدور حولي الكون دون أن أنتبه لباطني، هذا الباطن الذي أحركه بالأحكام والتصورات والرغبات والأفكار والضرورة والحق والعدالة، هذا الباطن المشلول، الجامد، البارد، العاجز عن تحقيق طمأنينة الكبرياء، كل هذا يحدث فقط لأني أرى الموت، إذ الموت هو الذي يجعلني موجوداً وصاحب كينونة وصديق الحياة، إذ الموت هو الذي يخلق في داخلي الحياة، وفي الوقت ذاته يخلق كل التعقيدات الذاتية المرتبطة بالكبرياء والمكانة والقوة والله والحب والجنون والألم

والغربة والوطن والانتماء والحلم والزمن والقيمة والمعنى والمسؤولية والجدوى، فما الوعي إلا وعينا بالعقد.

كثيراً ما شعرت باللذة حين عرفت بموتي القادم، إذ من المخيف ألا يتوقف القطار في النهاية، ولأنني يجب أن أفهم الحياة أو أحبها بقدر يجعل من هذه التجربة مغامرة جيدة، ولأنني حين أعاني يجب أن أتذكر شيئاً يجعلني أكثر صبراً وقوةً، كل منا يستمد قوته من شيء ما، سابقاً كنت قوياً بالحب حتى انهار تحت ضربات العالم والآن كل قوتي من الموت، أنا قوي لأنني سأموت، وعادل لأنني أفهم موتي جيداً، ويقظ لأني أفكر في موتي، وسعيد لأنني لي، هذه هي مراكز لذتي في الحياة

إن سيرورة بحثنا عن معنى حياتنا الخاصة تثير فينا قلق الموت، أي أن يتوقف كل شيء فجأة ونحن لم نكمل بعد مشروع الأصالة، وهذه مشكلة لأننا ننظر إلى اللامكتمل في المعنى وننفي ما أكملناه، أي نحول كل ما هو أتٍ إلى وحش يجعلنا أكثر جشعاً نحو كل الوحوش القادمة، ولأن السيرورة تفرض علينا الحركة المتتالية في شعورنا بالبحث عن المعنى، أي يتحول شعورنا إلى سجن مغلق للذات، ويصبح المعنى دائماً في الخارج الغائب، والمشكلة الأخرى هي أننا نفصل معنى حياتنا عن الموت أو نعمل على المعنى

باعتبار الموت على النقيض منه أو نرى المعنى تمرد على الموت، وهذا ما يجعل من فعل التمرد صراعاً داخلياً مدمراً ومضحكاً، إذ هو تمرد على مولد التمرد، أي الموت، وما المعنى إن لم يتوافق مع موقفنا من الموت، أو كيف يكون لحياتي معنى وأنا أتمرد على ما يخلق لي المعنى، أي الموت، ثم أصالتي تبدأ ما أن أرى موتي جوهراً للأصالة، فإن لم يكن لي موقف من الموت لن يكون لي موقف من الحياة، أي سأكون تابعاً، وإن لم يكن لي موقف من الموت لن يكون للمعنى معنى، أي سأكون ضائعاً وتائهاً .

في البداية، حين نكتشف فجأة، تحت ضوء القمر أو في فوضى الحرب؛ الأصالة التي بين الموت والحياة، نشعر بمأزق الولادة، وهذه بداية رحلتنا نحونا

الوجه الثاني

وضعت على الطاولة الدفتر الذي كنت أكتب عليه شذراتي الأولى عن الموت، ثم غبت في نوبة سخط مجنونة، وبينما كنت ألعن العالم وأنا أنظر إلى السماء السوداء من النافذة ثمة من دخل إلى الغرفة وهو يحرك الأوراق التي في يديه، لم أكن مستعداً لمقابلة بشري في تلك اللحظات الذاتية الحادة والحرجة، ولا كان لدي الطاقة على مجاراة أي حديث عن أي شيءٍ كان، إذ هي تلك اللحظات التي أكون فيها كارهاً للوجود ولكينونتي أو أكون بركاناً يحرق كل شيء دونما ضمير، سمعت صوتها يهز الهواء حولي لأول مرة

- مساء الخير سيد خورشيد

كان صوتها عادياً، مثل صوت أيّة امرأة تتنفس الحياة لكن خلف صوتها كان ثمة ضوء يكشف عما لم يكتشف بعد في الحياة

-أنا الممرضة المسائية الجديدة

صوتها لم يحرك في شيء بسرعة، احتاجت الرغبة إلى أكثر من دقيقة حتى تخلق وتصبح ناضجة وفصيحة وواضحة، نظرت إليها نظرات حادة قاسية، كانت جميلة

بعض الشيء، متوسطة الطول، ذات ملامح بسيطة بريئة، مرتبكة، خجولة، تحاول أن تتوازن نفسياً حتى يمضي الموقف بشكل سليم، لم أبعد نظراتي عن وجهها وهذا ما زادها خجلاً وقلقاً، تحركت من مكانها حركات لا واعية تكشف ضعفها ووحدتها، قلت في سري إنها هي وعرفت فوراً ماذا سأفعل وكيف، ثم نظرت مجدداً إلى السماء مع نصف ابتسامة ماكرة، تحركت من مكانها وصبت لي كأس ماء ووضعته على الطاولة بجانب السرير، كانت من شدة ارتباكها لا تدري بعد ماذا ستفعل أو ماذا ستقول أو لم أتت إلى غرفتي، بعد أن وضعت كأس الماء توقفت في مكانها لربع دقيقة، ربما كانت تنظر إلى وجهي، ثم قالت بنبرة متلعثمة

- سيد خورشيد هل أنت بخير اليوم؟

نظرت إليها نظرة غاضبة وقلت بصوتي الخشن الذي يخرج من فمي ككتل لهب

- ما قيمة الخير؟ أي نوع من الخير؟ ما هو الخير؟

تراجعت عدة خطوات إلى الوراء ثم قالت بصوت ضعيف

- هل تريد أن أحضر لك شيئاً ما؟

كان علي أن أضرب جذع قلبها بقوة فالصدمة هي اللكمة الأعنف للنفس البشرية، صحت عليها كالصاعقة

-نعم، أرغب بشيءٍ ما غير مألوف، مستحيل، مفارق، متعالي، غريب، لا مرئي، جنوني، مجهول، أرغب به بشدة عنيفة لدرجة أن أموت في سبيله، وأريده الآن

بسبب حرجها وخوفها قالت "حسنا" بصوتها وقالت "فهمت ماذا تريد" بملامحها وخرجت من الغرفة بمشية غير متناسقة وعشوائية، وهي طبعاً لم تفهم ماذا قلت ولا ماذا ستفعل، الأهم بالنسبة لي من كل ذلك أنني صدمتها وفتحت لها باباً للجدل في نفسها، وستدور في داخلها أسئلة كثيرة ثم ستنزعج من غرابة الموقف ومن خجلها وضعفها ثم ستعود بشكل مندفع واستفزازي بدافع الفضول أو الانتقام أو التلذذ بالمشاعر الصادمة أو الاستمتاع بالغرابة أو لأستمر في الصياح عليها إن كانت قد اعتادت على ذلك سابقاً أو لديها شعور قوي بالضعف والدونية والنقص، أو لتكشف لي إنها لطيفة وبريئة ولا تستحق ما فعلت بها أو للدخول في ميدان الدراما بسبب الفراغ الثقيل المطبق على حياتها، وهذا ما حدث إذ عادت بعد عدة ساعات بشكل غريب، نصف صاخبة ونصف خجلة، لا تفهم بعد الشرخ التي حدث في داخلها، دخلت إلى الغرفة بنفس منقطع وبحركات غاضبة، وقفت بجانب السرير وهي بحالة عصبية متشنجة ثم قالت بصوت رافض وفي الوقت ذاته صوتها لا يستطيع إخفاء براءتها الحالمة الساذجة

- ماذا فعلت لك سيدي؟ هل قمت بما يثير غضبك؟ قل لي، أنا آسفة إن فعلت شيئاً سيئاً، لم أقصد ذلك، لكن ما هو خطأي بالتحديد؟

نظرت إليها نظرات كلها تعجب ثم بدلت ملامحي إلى نداء استغاثة ذكوري أمام امرأة تستطيع أن تخلق له طمأنينة هادئة تحتويه وقلت ببطء

- لأن الإنسان البدائي لم يتعلم فن التحمل صنع الأساطير ثم الأديان والآن مع كل هذا التقدم الذي تجاوز أهمية تقدم الإنسان لم يتعلم بعد فن التحمل فصنع العلوم الزائفة والأساطير الحديثة المرتبطة بالسياسة والفن والفيزياء والكون، لكن أعظم وأفظع ما صنعه الإنسان في سبيل التحمل هو الحرب، إنها الصناعة الأنجع التي تهز جذوره وتضعه في مواجهة دائمة مع الموت، بالتالي تنشيط غريزة البقاء، إن الإنسان أبله وأعمى، لا يستطيع الاقتراب من الجمال والفن، فيعيش في دوامة تاريخية تثير الشفقة والسخرية والجدل التافه، واللعنات، الآن، هي طريقتي في تحمل نفسي وتحمل الوعي البشري السخيف، كانت ساعة النظافة سيدتي، الساعة التي أقذف فيها لعناتي على العالم حتى أعود سليماً عارياً من قذارة الحياة البشرية، حتى أعود إلي بعد أن حملت أطناناً من التراكمات المشبعة بالغيظ والسخط والكره والحقد والغيرة والحسد والازدراء، إذ علينا تهذيب نفوسنا بين الفترة والأخرى حتى لا ننجر وننخدع

بلعبة العالم، وقد ضربتك بشظية أنت بريئة منها لذا أنا الآسف سيدتي.

نظرت إلى السماء بملامح حزينة وأكملت أقول بصوتٍ خشن يخفي طيبةً نقية

-يمزقني أن أجرح أحداً دون قصد، أشعر حينها أن الوحش الذي في داخلي يجب أن يموت ولكي يموت علي أنا أن أموت، إذ هذا الوحش يخلق في داخلي لأنني لا أستطيع أن أكون وحشاً في الخارج.

هدأت الفتاة بعد أن سمعت كلامي المثقل بمشاعر الأسف والذنب والحزن والنبل، تغيرت ملامحها من الغضب إلى التعاطف، وفهمت أنني كنت في موقف مشابه لموقفها الحالي، أي الغضب بسبب الحساسية والحنان والبراءة، وهذا ما كنت أريده بالضبط، سحبت الكرسي من تحت النافذة نحو سريري وجلست عليه وهي تحاول أن تكون مخلصة في تعاطفها الإنساني ونبيلة في حبها للآخر الغريب الذي لا تعرف عنه شيئاً قط، قالت بصوتٍ حنون وهي تنقل نظراتها بين وجهي وأماكن أخرى في الغرفة وكأنها تحارب خجلها المفرط بثبات رغبتها في التعاطف

- لم يحدث شيء، إنه سوء تفاهم بسيط، أنا أيضاً كثيراً ما أشعر بأن الحياة تظلمنا دون ذنب، أنا هنا بجانبك، أستطيع أن أفعل لك كل ما تريده، تستطيع أن تتحدث معي، سأكون صديقتك منذ اليوم، لم أنت وحدك؟ أليس لديك أحد هنا؟ أه

آسفة على هذه الأسئلة الغبية، أنا غبية وطائشة وحمقاء، سامحني، ستطيب سيدي وستخرج من هنا، أؤكد لك ذلك.

كانت تتحدث باندفاع ولكن بين الجملة والجملة تصمت صمتاً طويلاً وغريباً، تفكر في ما تريد أن تقوله لكن قبل أن تقرر ذلك تكون قد قالت ما كانت تفكر فيه ثم تعيد التفكير في ما قالته لتصلحه أو لتشعر بأنها طبيعية بعد أن قالت شيئاً حسناً وسليماً ومتناغماً مع الموقف، إنها فتاة ساذجة، مراهقة الروح، سطحية الفكر، يمكن أن تكون ضحية في أي موقف أو علاقة أو حدث، يخيل إلى المتفكر فيها إنها ولدت لتتمثل ذلك فقط، عليها أن تتغير قبل أن يسفك قلبها أو تُقتل، لكن هذا ليس شأني، هي وسيلة لغايتي العظمى، وسيلة علي أن لا أغير نظرتي عنها حتى ولو رأيت دمها يسيل على جدران الغرفة كلها، لا يسقط المرء إلا حين يخلط بين الوسائل والغايات، وتحتي لم يعد يوجد مكان أسقط عليه، أنا معلق في الهواء وهي عصفورة مرت بجانبي فأمسكت بها، علي الالتزام تماماً بدربي، فكرت في طرق سيطرة فعالة، أفعال وأقوال، شخصية تكسر كل أدوات نفسها الدفاعية، تسرق قلبها وعقلها، تمسك بعنق قوتها، تسخرها لي، فرأيت في الحقيقة صدقاً يكسر الحدود وفي الألم جسراً متيناً، حقيقة وألم هذا الجسد الممدد على السرير، وبعدها سيأتي الحب ليعلن نجاح العملية بأكملها، ثم أفعل فعلتي العظيمة، باشرت فوراً بتكوين شخصية في داخلي، شخصية ميتة تنتظر الدفن، شخصية تعصر القلب

وجعاً على الفجيعة المختبئة في دهاليز النفس البشرية، اتخذت الملامح الجديدة، نبرة الصوت الجديدة، درست الحركات والإيحاءات والإيماءات التي سأكشفها، ثم خبأتني خلفي، في غرفة النظر والتحكم والتحقيق، ونطقت أتفاعل معها على ما قالته قبل قليل وأنا أمرر أصابعي بين شعري بحركة تكشف السخط الممزوج بالوجع

- كلما ظُلمنا شعرنا بالذنب أيضاً حتى لا تتكسر نظرتنا الجميلة عن الحياة، كم نحن أبرياء في ذلك، نُظلم ونسأل ضمير عما فعل، ثم وبهذه البراءة النبيلة نظلم مجدداً، هل كل حروبنا الداخلية من أجل البراءة؟ إذن لم العالم ملوث وقذر!

أطلقت تنهيدة تتسع كل الروايات التي كتبت عن الظلم ثم نظرت في عينيها أكشف صدقاً يفجر رغبة الحب فيها ثم قلت

-البراءة طفرة غريبة غيرت علاقتنا بالطبيعة، فلو لم توجد لكانت الحياة صلبة، باردة، شمولية، متناسقة، منظمة، قابلة للتمثُل والممارسة دون الحاجة إلى لحظات الشرود والخيال، إن هذه البراءة جزء من دمي ورابط بين نفسي وجسدي، وهذا أنا رغماً عما لا أحبه عني.

أمسكت يدها فجأةً كما يمسك الألم قلب الإنسان وقلت وأنا أقرب رأسي نحوها

-إنني ملتصقٌ بي كحلزون، لا طريقة أفك بها هذا الارتباط المستفز، ملتصق بي في كل هذه الحروب التي تحدث في داخلي في سبيل البراءة، ملتصقٌ بي وأفكر فيما لا يجب أن أفكر فيه ولا أفكر فيما يجب أن أفكر فيه، وبين اليجب واللايجب أتعارك معي عراكاً لا نتيجة بعده، يحدث هذا ويدور الحدث حول نقطة المركز الوهمية، الفكرة ثم ردة الفكرة ثم الحرب ثم أصل معي إلى نقطة الهباء، أي أرى صورة ما سيحدث بعد ذلك من كل ما حدث سابقاً، وهكذا في دوامة لانهائية من البراءة أو من الحماقة.

كانت تنظر إليَّ نظرات ممتلئة بالدهشة والألم والعطف، قالت متلعثمة وهي تضغط على يدي

- أنت، أنت، لا أدري، لكنك لست عادياً، ارجوك حدثني عنك

انفجر في داخلها فوضى درامية لذيذة، كانت شفاهها الصامتة تقول لي "تحدث أرجوك، أذهب بي أينما تريد" فرحت بذلك في داخلي فقد استطعت سرقة سلطتها العليا، تركت يدها ورفعت ظهري عن السرير بحركات تظهر تعبي وعجزي وشرعت أقول بعد أن أسندت ظهري خلفي

- كيف أكون عادياً وأنا ممتلئ بكمية هائلة من الأحاسيس والهواجس والأفكار الصارخة الصاخبة، ومتعب كعصفور صغير فقد جناحيه، كبيت فارغ، كسجين بريء، متعب لأني كتمت ذلك كل حياتي حتى تراكم التعب وتكدس أطناناً في صوتي، جسدي مرهق، صلب، الألم عضو فعال، أتحسسه

في كل مكان من جسدي، كأنني مستعمرة عقاب، كأنني حقل ألغام، جسدي أنين لا يسمعه أحد سواي، أنا الوحيد الذي أعيش فيه لسوء الحظ، وثمة صداع هائل في جمجمتي، صداع يهز صورة العالم في كل لحظة، صداع يفتح لي كل أبواب اللعنة فيقص لساني الهواء بشذراتٍ من الازدراء والاحتقار، أكاد انفجر واتفتت خليةً خليةً، تكاد عظام جمجمتي تصرخ، لكن رغم كل ذلك يوجد خيط غليظ يربطني بالحياة، بحياتي هذه التي لا تشبه الحياة في شيء، وحده الألم هو الأكثر حدةً ووضوحاً من بين الملذات، لم استطع في كل حياتي أن أجد عزاءً في شيء، فكانت العتمة رثاءً مفجعاً، رثاءً لا أحد يتحسسه سواي، لست أدري إن كان من الممكن أن يرثي أحدٌ أحداً بمقدار أن يرثي الإنسان نفسه، فهو الذي يدرك ما معنى أن يكون الألم حريقاً لا يخمد، فهو الأكثر انفتاحاً على جحيم نفسه، يرى كيف تلتهب المشاعر والصور والأفكار تحت نار الألم، لكم سقطت في هاوية الموت وأنا بكامل لهفتي للحياة، لا لشيء، دونما سبب، هكذا كانت الأمور، لا تفهم، ليس ثمة تفسير عن هذا الانتهاك الوجودي لحيواتنا البسيطة، يفتك بنا فقط لأننا نحن نحن، ربما إن الأمر مجرد عبث محض أو اختلال في مشاعر الكون أو اصطدام الحيوات ببعضها البعض، لا أدري حقاً ما ضرورة أن يوجد هذا الكون الضخم أو ما ضرورة أن نشترك معه في هذه المسرحية الغريبة، حقاً لا أدري كيف علينا معالجة هذه الحياة ونحن لم نستطع بعد أن نجد لغةً متينة بيننا وبين الكون، لغة صريحة في طرح الألم كما

هو، في طرح صدمتنا من قدرية الحياة، من هبائها، من غرابتها، من زيف العدالة، إنني لا أطمح إلى المثالية، ولا إلى العدم، ولا إلى الكمال، حسناً، أظنني لا أطمح إلى شيء، فليستمر كل شيء على حاله، فلنمضي فقط في ما لسنا نعرفه، ونحن مضرجون بالحياة لا نستطيع الوصول إلى غرفة الحكمة التامة، وإن متنا لا تعود للقضية أية قيمة ممكنة، فإما علينا أن نحاول، أن نخطو دائماً أو فلننتحر بطريقة ما، أو لنضحك، نضحك على القضية بأكملها، بكل ما بها من جدية مؤلمة، لكنني لست هذا الذي أتسعت المغامرة لأقدامه، لم أغامر بشيء، لم أفعل شيئاً عظيماً، لم أحب امرأة قط، لم أمارس الجنس في كل حياتي، لم أفقد عذرية كينونتي في شيء، ربما فقط في العتمة، هذه العتمة التي رمت علي ركام التاريخ والحضارة، لم أراهن على حياتي مطلقاً، أكلني الكسل والضجر، أكلت الوحدة عظامي، أكل المرض دمي، وها أنا الآن أأكل نفسي بهذا الهذيان المفجع، أه لو امتلكنا نحن البشر لغةً أخرى، لغة نصرخ بها عن كل الرماد البركاني المحتجز في حنجرة الذاكرة وقلب الأثر وعيون الوجع، أه لو استطعنا أن نقف فوق الجبال لنعيش مع الرياح لغة الحرية المطلقة، لكن هيهات سيدتي، إنني لا أعبر إلا عن ضعفي، قد يكون ضعف الخلايا التي لا تستطيع البوح بشيء أو هو ضعفي أنا بكل ما تحمله الأنا من لغة، ضعف كينونةٍ منعدمة الكينونة، فقط جسد هش يثير في هذه الغرفة عبثاً سخيفاً ليس له قيمة حضارية، إنني منقسم، مفتت، مبعثر، منثور، ممزق، مقذوف في

غربة عنيفة بيني وبين نفسي، خلف رغباتي ضباب كثيف، أكاد لا أرى ماذا ستكون رغبتي القادمة إذ لا أفهم رغبتي الحالية، إنها مغلقة على ذاتها، خائفة من مرايا البوح، من أضواء اللغة، من الكفوف التي تصنع الملامح، النفس البشرية أرضٌ معتمة، صحراء قاحلة، وأصابع الإنسان أقصر من أن تلمس ترابه ورمله، كل ما يقوله إنسان عن نفس إنسان آخر هو كلام سريع التلاشي في اشتباكات الحاضر، فقط القصص المخزنة في غرف الذاكرة هي التي تكشف للإنسان ملامحه التي تقيده في هوية زمنية ليست هويته الحقيقية، ليست أرضه الترابية والرملية، هو ليس هو كما يظن، هو ريح، عتمة، فراغ، لحظات، جنون الولادة في اللحظة، شيء منفلت من أدوات الإمساك والتحديد والتجريد والتعري، هو عاري حتى من نفسه، لكنه يتقيد بروابط قصة حياته، يلبث أثواب الذاكرة، يخاف من البرد الهواء الطلق، يخاف من ألا يكون موجوداً، يظن ذلك موت، يظن ذلك عدم، فيتكور في قصته إلى أن يختنق، إن قصة حياة الإنسان هي العائق الأصعب في طريق البصيرة، أما أنا فقد فقدت حياتي منذ تلك القطيعة، حين وجدت أن الدراما كذبة غير مقنعة وأن القلب فتنة اللذة والغياب وأن الحركة مع الآخر لا تفضي لشيء قيم، لقيمة متعالية على تفاهة العلاقات البشرية، لكنني بعد كل هذه الانتقالات والتمزقات الذاتية، بعد أن خرجت من سجن القصة فرحاً، وجدتني هائماً في فضاء معتم غريب، في نظرة تعيد صنع الكون كلما تغيرت احتمالات وفرضيات واستنتاجات وغايات

ونتائج وآراء هذه النظرة الشاملة، إنني الآن في الهامش، دون عيون، دون صوت، وعادت إلي قصتي الفارغة عن طريق هذا المرض اللعين، أليست كل هذه الأسباب حجة مقنعة لينتحر الإنسان، لينحر حساسيته الموجودة في هذا الجسد ويعود مفتتاً مجزأً إلى تراب الطبيعة، أه يا سيدتي كم أنا متعب، متعب كقبر فارغ، كفكرة الانتحار في رأس إنسان متفائل، كوجه الإنسان بعد اكتشافه أوهام الحياة في الشيخوخة، كخطوات مجهولة في درب ما، كسمكة مزقت الصنارة أحشائها، كمعزوفة لم تعزف بعد، كالحقيقة.

كانت شاردة معي، متأثرة بقوة، تهتز بين الفينة والأخرى، تطلق تنهيدات حارة، نظرت إليَّ بصدمة وقالت:

- أنت قديس، نعم نعم، لا يمكن أن تكون إلا قديساً، هل تتحدث مع الله؟ هل أنت قديس؟

كانت منبهرة كل الانبهار، ضحكت عليها في نفسي، لم أكن أتوقع أن تكون سهلة لهذه الدرجة، وعديمة التركيز أيضاً! أحدثها عن آلامي فتظنني قديساً! أكل القديسين ثرثارين ومدعين ومتوحدين هكذا؟ لكن حسناً، معها شيء من الحق، إذ لا أحد غير القديس يتألم ويفهم الألم ويعبر عنه، لا أحد غيره مهتم بالألم كشيء جوهري، فهل أنا حقاً قديس؟ لا أعتقد، لا يمكن بتاتاً، أنا شخص مدعي، منفصم، مهووس في غايتي ومستعد أن أفعل أي شيء في سبيلها، وهي، هذه الفتاة الساذجة، وسيلتي الشريرة، فكيف أكون قديساً؟ رغم أن آلامي حقيقية كل الحقيقة، مع كامل شكي في فكرة

الحقيقة ذاتها، والشخص الذي يتحدث عن آلامه حقيقي، الذي هو أنا، ولكن كل الحقيقة التي تخرج مني تصب في مصلحتي، وهل توجد حقيقة لا تصب في مصلحة قائلها؟ فهل يمكن أن يوجد قديس إلا في خيال المغفلين؟ لكن حسناً سأكون قديساً أيضاً، سأكون لها ذلك رغم أنني لا أحبذ أن أكون أي شيء، لكن فلنذهب إلى غايتي.

كانت لا تزال مشدودة إلي، تراقب صراعي الداخلي من ملامحي، تنتظر مني الحديث بلهفة قطٍ جائع، شممت يدها ثم قلت

- أتقبل هذا لقب لأنني ذهبت إلى أبعد ما يذهب إليه القديس، فهو يعيش الزهد أما أنا فزاهد وفي الوقت ذاته جربت الحياة حتى أصابتني التخمة، لا تلك الحياة التي يتم الاحتفال بها، بل تلك التي يهرب منها جبناء النفس والعقل، دخلت إلى أقذر الأماكن، وتحاورت مع ألعن العفاريت والوحوش، وشربت كؤوساً من سموم الحياة، وعرفت في النهاية قيمة الصفر بالعقل والشعور معاً

سألت مندفعة مشوشة

- ما قيمته؟

- قيمته صفر

نظرت بتعجب، ارخت شفاهها السفلية معبرةً عن عدم فهمها

- هل سمعتِ بأسطورة سيزيف؟

- لا

- سيزيف هو شخص لعنته الآلهة بأن يدحرج صخرة كبيرة نحو أعلى الجبل، وحين تصل تتدحرج مجدداً نحو الوادي فيعود ويدحرجها نحو الأعلى، وهكذا إلى الأبد، سيزيف هو الذي يعرف اللاجدوى والفراغ والعبثية، إلا أن كل ذلك من الممكن تقبله بشكل ما، أو عيشه بشكل أخف ألماً، لكن المعاناة الأكبر هي صدمته النفسية وانهياره العصبي من العودة الدائمة إلى مرحلة الصفر، إن ذلك يحول الاستقلالية والاستقرار والانتماء والألفة والسمو وشعور الوصول وشعور التحقق وشعور الانجاز وشعور النجاح وشعور النصر إلى أوهام مفجعة، آه لو تعرفين كم مرةً عدت إلى مرحلة الصفر، آه لو تعرفين شراسة هذه المعاناة، آه لو تعرفين ماذا يعني أن تكون المعاناة طريقاً نحو سؤال المعاناة، وهل تعرفين إنني بعد كل مرة خرجت فيها من مرحلة الصفر كنت أركض خلف الدخان وأعرف بشكلٍ لاواعي أنه دخان، أليس هذا الجنون بعينه وقلبه؟ وهل يوجد شيء غير الدخان؟ هذا هو الصفر الذي أعنيه، هذا هو الصفر الذي عشته وأعيشه دائماً، القديس حين يصل إلى مرحلة الصفر القصوى يغلق عينيه، أما أنا فأبقى مفتوح العينين، مذعوراً ومصدوماً ومتألماً ويائساً.

- لكن لا يمكن مقاومة ذلك طيلة الوقت، كيف تحتمل؟ من المؤكد أن لديك من تسند قلبك على قلبه، أيوجد لديك أصدقاء، حبيبة؟

- لا أحد، أنا وحيد، أو أشعر بالوحدة، الشعور بالوحدة هو الجوهر في هذه القضية، ربما هذا مصيري أو هكذا أفكر، كيف أشرح لك! لقد سمعت صوت المسافة التي بيني وبين الأشياء، تلك الطعنة الغريبة في كبد الشعور، لا أستطيع أن أشعر بأحد ولا أحد يستطيع فهم شعوري من كوني وحيداً في كونٍ وحيد ومع إلهٍ وحيد، كنت مدركاً في كل حياتي وحدتي القاتلة، وتيقنت أنني سأموت وحيداً مع نفسي، بل إلى ذاك الوقت سأكون أشد وحدةً، وأنا حاد الرؤية تجاه كل علاقاتي مع الخارج، وتكمن معضلتي في صراعي مع وجهي الخارجي الذي يعطيه العالم مساحةً ليُكبت ويقمع ويتم بعد ذلك التواصل معه وكأنه أنا، أنا الذي لا أريد معرفته ولكن جميع الأشياء تتحدث معه وكأنه أنا، الأنا الذي يقطع كل الأصابع التي تحاول الوصول إلي، كل الأشياء التي في الخارج تقتلني، لكن وجهي الخارجي هو القاتل الأشرس لوجهي الداخلي، لكن أيمكن أن يكون الإنسان قاتلاً وضحيةً في الوقت ذاته؟ ربما، إن كل إنسان مشروع قاتل وضحية في الوقت ذاته، هو الذي سيقرر رؤية الآخر له، لأفعاله، قد تكون أفعاله بنظره عادية لكن بنظر الآخر غير عادية بتاتاً، قد تكون غبية، ذكية، وقحة، لطيفة، خبيثة، بريئة، قد تكون مجرد أفعال اعتباطية لكن

الآخر دائماً لديه سلطة ما ليعيد تنسيق وتصنيف هذه الأفعال حسب هواه واعتقاداته والتزاماته البيئية والاجتماعية، وفهم فعلي القتل والتضحية قد تختلف مع وجود العوامل بين شخصين، أو مجتمعين، أو زمنين، إذن من الممكن أن يكون الإنسان قاتلاً في الخارج وضحيةً في الداخل أو العكس إذا كان مختلف العقل عمن حوله. إن من المريب أن يقرأك الآخر، أن يضعك في فكرة، مجرد نظرة واحدة قد تخرج الإنسان من داخله ويجعله هدفاً سهلاً لأشواك الشك والحرج والظن والربما واللكن والإذن، ومن المريب أيضاً أن يعي الإنسان الوعي الاجتماعي للآخر، أن يكون قد درس هذا الوعي وتجاوز بعض مبادئه أو كله، أن يدري ما الألفاظ والمفاهيم والحركات وردات الفعل التي سيستخدمها لهذا الموقف أو ذاك، أن يدري كيف يفكر الناظر الآخر في العار والقيمة، الجريمة والتضحية، الضرورة والتفاهة، الحق والباطل، العدالة والفساد، وأن يكون مختلفاً عنه ولكن لا يستطيع كشف اختلافه لأن السلطة بيد هذا الوعي الاجتماعي، هذا أنا؛ صراعٌ لا ينتهي، وهذا ارتباكي؛ ارتباك إنسانٍ رمي عارياً في عالم مجهز مسبقاً، لكن شعوري بالوحدة ليس من هذه الأسباب فقط، فثمة أسباب أخرى كثيرة.

أخذت شهقةً قوية وأكملت

- كما لا توجد في داخلي صور، مشاهد، وجوه، أنا خالي من روابط العينية للمكان، حتى المكان لا وجود له في

وعيي، منذ البداية كنت هكذا، ربما لم أولد بعد إن كان فعل الولادة يحتاج إلى مكان، أنا موجود في الزمن، وفي زمن محدد خلقته بالكلمات، بالكلمات التي هي مجموعات مبعثرة تنتج أفكاراً لاوجود مكاني لها، وهي تدفقات للمجهول الذي يسكنني، للمجهول الذي حين نلمسه تصبح اللحظات مفارقات ذاتية بسبب دهشة التفاعلات الحديثة للكلمات مع الأفكار، أنا خليط متجدد ومتغير من الكلمات في كل لحظة، أنا سيرورة زمني الخاص، أنا زمني، أنا مخلوقي وخالقي.

ضحكت عليها في داخلي، كانت تستمع إلي بذهنٍ مشوش، لا أدري ما هي الجمل التي علقت في ذهنها، لا أدري تماماً إن كان ذهنها فكرياً أو صورياً أو شعورياً، حسبما فهمت من حركاتها وملامحها إنه شعوري كأذهان معظم النساء، ولأنها لم تشرد ولم تتخيل فلم أرجح أن يكون صورياً أو فكرياً، هي امرأة تلمس العالم بمشاعرها، تفكر بمشاعرها، تتخيل مشاعرها، تخطط وترى المستقبل وتعود للماضي وتقرر وتتحدث بمشاعرها، هي سهلة الانقياد والتلاعب، يمكن استغلالها بسهولة، يمكن تغييرها وتوجيهها بسهولة، عدت أفكر فيما قلته لها، وعكس ما طرحته، آه كم هي عظيمة المسافة التي بيني وبين الأشياء، إنها نعمة أن أكون لي، أو يكون لي ما ليس لي بطبيعة الواقع، إنها هبة القدرة على الانفصال، برهان أن أكون إلهاً علي، والقدرة على الاتصال حينما أرى ضوئي في الخارج، في ذلك المشهد الذي يفتح لي أذرع الاحتواء، لا تجرحنا الأشياء إلا

حين ننقاد خلف خرافة وحدة الوجود الشعورية، فأنا وجودٌ مستقل عن الوجود، لست موجوداً كشيء، كقطعة أثاث، كغبار عابر، أنا مستقر في نواة روح الوجود، وجودي أنا، أو الوجود فكرتي عما أشير إليه في كل لحظة، أما الممكن والمستحيل فهما من خدائع النظام.

عدت إليها بعد هذا الشرود القصير، كانت صامتة كطفلة مؤدبة، أمسكت يدها وقربتها مني

- هل يمكنك أن تعانقيني قليلاً؟ فقط بضع دقائق

لم تكن في وعيها تماماً، لكنها ابتسمت ابتسامة كاذبة واقتربت، عانقتني وتمددت معي على السرير، لم أفهم ماذا يحدث في ذهنها، فيما كانت تفكر، أو بماذا كانت تشعر، كل حركاتها اعتباطية غير إرادية، ربما كان الموقف أكثر غرابةً واحراجاً من قدرات وإمكانيات عقلها الصغير، وبينما كان جسدها الصغير يسترخي شيئاً فشيئاً بين ذراعي عدت أهذي لها دونما غاية واضحة

- بعد كل ما قلته لكِ هل أنا هو أنا؟ لا أدري، حقاً لا أدري، إن أفظع ما يؤلمني الآن ومنذ المرض أنني صرت عبداً للرغبات المتفجرة، لم أكن قط مقيداً هكذا، كنت حراً، طيراً في السماء، أو كنت أكثر دقةً في تنظيم أثاث الذات، أو أكثر شجاعةً في ضبط هذه الخبيثة التي تسمى الرغبة، لا أفهم كيف يمكن أن يصل الإنسان إلى هذه الدرجة من الضعف، لا لم أفهم بعد كيف صرت هذا الراغب، لكنه المرض، الحركة

التي تزلزل كيان الإنسان، تفتح الأبواب أمام كل الرغبات المكبوتة والخبيثة والنبيلة والضعيفة لتصرخ وتتعارك على مركز الإدارة الذاتية، إن الرغبة كلمة مستفزة، متطفلة، تعصي العقل، إن الإنسان حين يقترب من نفسه حد الاتحاد يصبح قنبلة وحين يضع المسافة يتحدث عن نفسه كغائب، كشيء هامشي، أرى من الأفضل للإنسان أن يكون قنبلة على أن يكون غائباً وشيئاً هامشياً، لكن من الضروري أيضاً أن يفهم الإنسان ذاته، ولن يفهم إن لم يكن غائباً عنه، أن يبتعد في بعض الأحيان ليرى ماذا فعل وكيف فكر وماذا غير وإلى أين يذهب وكيف سيموت ولم حدث كل ما حدث، على الغائب أن يفجر تلك القنبلة بالأسئلة، إن الغائب ضرورة لخلق توازن حياتي بين الرغبة والبرودة العقلية، بين الحركة والسكون، بين التعالي والتكور، بين الكلام والصمت، بين الإنسان وهويته، على أحدهم تذوق الحياة وعلى الآخر التفكر فيها، على أحدهم الشعور بها وعلى الآخر نقدها، لا حياة دون عقل وكذلك لا حياة دون حواس أو لن تكون حياةً تستحق التقدير والاعتزاز، إن المرء الذي لا يشغل عقله وذاته ليس إلا وعاءً امتلأ بأوهام وأفكار الآخرين، لكن حسناً بعد هذه امتلاكي لهذه المعرفة هل أنا هو أنا؟ مجدداً أقول لا أدري، إذ وبوجه آخر يقال لك هذه حياتك، هذه أفعالك، تصوراتك، مشاعرك، أفكارك، صفاتك، طباعك، لكن للأسف ليس الأمر كذلك، أنت لست صاحب القرار، جيناتك تسيّرك، المجتمع يقمعك ويتسلط عليك ويؤثر فيك، تربيتك، ولدت في مكان ما، ورميت عليك

الأثقال، ما ورثته عن عائلتك، طبقتك الاجتماعية، آثار من حولك، التزاماتك التربوية والاجتماعية والثقافية والاعتقادية، الذين عاشرتهم وتركوا فيك الندبات والجروح والأثار، والكثير الكثير من القيود، أنت أثر كل ذلك، أنت المسؤول عن تعاملك مع هذا الأثر، لكن حتى في التعامل مع الأثر لست مسؤولاً عنه تماماً، لا تنس أنك إلى الأبد ستكون قيد المكان والزمان، ستتشابك الآثار الزمكانية مع أثرك الشخصي الذي هو أنت، لكن عقلك؟ ماذا عن مبادئك الفكرية الخالصة؟ ها هنا يكشر وجهك اللامرئي عن أنيابه أمام المرايا، وجهك هو الذي اختار مبادئك دون علمك، أو أقنعك أن هذه المبادئ هي الصحيحة والسليمة والعادلة، ورغم كل ذلك في كل حدث وصفقة واختبار تراهن الطبيعة عليك، ترميك في حلبة الصراع، فإما أن تبقى للجولة القادمة أو تموت. إن الإرادة شعلة نار صغيرة، غير ناضجة، تنطفئ بسهولة إن لم تُدعم بالمعرفة والاتزان والذكاء والعقلانية، لكن في كل الأحوال أنتِ هي أنتِ، وأنا هو أنا، ولأنني أنا ولدي هذه الإرادة الصغيرة أخترت أن أعيش في العتمة مجرداً من شجاعة الكينونة ومن خيال حياتي، لأنني امتلكت إرادةً أعلى من تلك الإرادة الوهمية التي تتكون من الآثار أخترت أن أكون أنا أنا، لا لم أتقبل تلك الإرادة الوهمية، لم أكن صديقاً لآثاري، رفضّتني مراراً، قتلّتني كل ليلة حتى صرت أكثر عتمةً، ولست شجاعاً بما يكفي لأتحدث عني، عن حياتي، عن الذين تركوا فيَّ ندبات صاخبة بالألم، لا لست شجاعاً بما يكفي لأتخذ من أفعالي

عماد كينونةٍ وهمية، فهكذا أكون أنا الذي رغبت دائماً أن أكونه، إنني الآن أتحدث عن أحد المجهولين الذين يرغبون أن تدوم حياتهم في العتمة، مجهول يجهل أي شيء عن نفسه، يتحدث عن نفسه كأنه أحد الغرباء، مجهول ينظر فقط، يراقب نفسه كجدار مشبع بالرطوبة والماء، كجدار ثابت يمكن ثقبه بالمسامير وتعليق الأشياء عليه، مجهول جاهز ليخوض غرقاً جديداً في البحر العنيف، ما ألذ ان يكون المرء مجهولاً حتى عن نفسه، أن يتحرر من خيال البشري بموهبة العتمة، ألا يقول له أحد "هذا أنت"، لن يعود ثمة "أنت" بينه وبين الآخر، هو فضاء واسع، فارغ، وجهه مسافة أمان، بعيد عن متناول أدوات الإشارة، لا شيء يدل عليه، هو غير موجود في الوجود، لا مرئي، غائب، حر، حر حتى من نفسه ومن الآخر الموجود فيه، إن المجهول لخاصية وجودية غريبة، وأنا أقدر هذه الخاصية، إن من الجمال تقبل المجهول لذاته رغم أن كل شيء يحاول أن يسيسه في المعلوم، أنا لا أقول ما أقوله، بل لا أستطيع فعل ذلك، أنا انتظر القول من المجهول مثل تلميذٍ مجتهد ثم أستمتع بما صنعه لي.

مرت دقيقة صمت ثقيلة، تذكرت فيها عقدةً ضرورية في تطوير القصة بيننا، وبلا سابق إنذار دفعتها على الأرض، فوقعت مع صرخة مفاجئة صغيرة أطلقتها بشهيقٍ فزع، ثم نظرت إلي بتعجب، ظلت تحدق فيَّ لثواني ويكاد وجهها ينفجر تعجباً من غرابة حركتي المفاجئة، وقفت بعد ذلك

دونما كلام ثم ذهبت، وما أن خرجتْ حتى دخلت في دوامة ضحكة هستيرية خبيثة، وأنا أتحسس قرب تحقق رغبتي، آه من رغبتي، هذه الرغبة التي هي كلي، كل حياتي، طريق خلاصي، سأخرج من هذا الجحيم، سأكون أول من حقق ما يخشى الآخرون حتى في التفكير فيه، سأكون أول شخصٍ حر، سأكون رمز الحرية، شخصية العصر، لغز الأجيال القادمة، نبي الإرادة، سأكون موضوع الغرابة والتعجب والدهشة، سأكون الشخصية التي تؤلف عنها مئات القصص والتفسيرات المتصارعة المتناقضة، إن المجد لمن كان في مجده إرادته وفعله وخياله، ولمن كان سباقاً ومفارقاً وفاتحاً، لكن قبل كل ذلك تكمن سعادتي الكبرى في خلاصي، الخلاص هي النتيجة المرجوة من فعل رغبتي، وماذا غير الخلاص يستحق أن يُطلب وأن نعيش في طلبه؟ لكن والآن ما العقدة التي كنت أقصدها؟ إنها عقدة عظيمة، كانت فاعلة مهمة في تطور الحضارات والمجتمعات والتاريخ البشري منذ بداية تكونه، إنها عقدة العبد والسيد، شخصٌ فوق يملي الأوامر والقواعد، وشخصٌ تحت ينفذ ويعمل، شخصٌ مرفه مستمتع بسلطويته ومكانته وتفوقه، وشخصٌ مسخر يجتهد في عبوديته في سبيل الإخلاص والطاعة والسعادة الزائفة، شخصٌ يسيّر الزمن، وشخصٌ يسيّره الزمن، شخصٌ هو قدره، وشخصٌ قدره فوقه، شخصٌ قادر على التفكير والإبداع والإرادة، وشخصٌ تحكمه الذنوب والخوف والعجز والحاجة، شخصٌ يمتلك الأصول الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وشخصٌ لا يمتلك لا

وقته ولا عقله ولا حياته، الأول سيد والثاني عبد، من هنا بدأت الطبقيات والأعراف والعادات والقوانين والمفاهيم والطقوس والمشاعر والأفكار الاجتماعية، إنها خدعة نفسية اشترك الشيطان مع الله في خلقها، ولا مانع في استخدام هذه الحيلة في سبيل رغبتي العظيمة، والآن ماذا سيحدث لها؟ ستفكر وتحتار فيما حدث، إلى أن تعجز، ولأن شعور العجز شعورٌ مكروه وثقيل ستبحث عن تفسيرات وتأويلات، والقصة كلها هنا، هي لن تجد إلا تفسيرات وتأويلات تحتية، أي ستتخذ في الأخير تفسيراً يخدمني ويجعلها تحت خدمتي، لأنها كحيوان طبيعي له حكم مسبق عن كون الوالدين يعرفان أكثر مما هو يعرف، وخصوصاً حين يعرف إنه لا يعرف، سيصبح لديها حكم مسبق عن كونها أصغر مني فيما حدث، وهذا الحكم المسبق البهيمي هو ما سيجعلها تضعني مكان والدها بشكلٍ لاواعي حينما تتأخذ من تفسير ما رابطاً اجتماعياً بيننا، أي بهذه العملية النفسية الاجتماعية العقلية ستصبح خادمة مطيعة، وهذا ما أريده تحديداً.

2

تمزقات، انكسارات، ترقب مفجع، انتظار مفترس، هواجس متسلطة، تفكير جحيمي، شك شرير، مضيت يوماً كاملاً أتعذب في انتظار عودتها، لم أتوقع منها كل هذا العناد، ظننتها ستعود بعد ساعة على الأكثر، ربما ذكرتها بسقطة حصلت معها في الماضي، ربما نشّطت رغبة الانتقام عندها، ربما تحولت لامرأة أخرى، امرأة قادرة على أن تكون صاحبة موقف، حتماً ثمة شيئاً لم أدركه فيها، لكن في الأخير ويالفرحتي أتت الملعونة، دخلت غرفتي وسألت عن صحتي بشكل رسمي جاف، وكأن شيئاً لم يحدث بيننا، كنت أعرف في داخلي أنها قد تمرنت وتشجعت كثيراً حتى تكون بهذا الشكل الطبيعي المستفز، ولأنني أشفقت عليها، وهذا ما لا يجب أن يحدث، أظهرت تقبلي لأسلوبها، وكنت أشعر أن أحدنا على حين فجأة سينهار دون أن يهتم بنتائج هذا الانهيار ولا بانطباعات الآخر عنه، كنت بالكاد أجمع نفسي

لأتشبث برغبتي، وكانت هي حسبما اعتقد تتعذب استغراباً مما حدث ويحدث وسيحدث، جرى كل شيء بشكل رسمي، الكلام، الحركات، النظرات، وكأننا لا نعرف بعضنا البعض ولم نتحاور قط، ومع تحركها نحو الباب شعرت بأن كل شيء قط سقط وإلى الأبد، لكنها وفي آخر لحظة توقفت، أسرعت أقول معتذراً بشكلٍ غير مباشر

- آه إنني متعب، لا أشعر بنفسي، لم أعد أستطيع رثاء الميت الذي في داخلي، أنا الميت من التعب، لا شيء يعبر عن موتي المفجع هذا، لا هواء يقترب، أنا أختنق تحت الأثقال المكدسة فوق كينونتي، لست شيئاً ذات قيمة ولعلني لم أكن شيئاً كل حياتي، لم أستطع أن أكون أنا، خانتني ملكة الحلم فلم أحلم بشيء مطلقاً، أنا محض افتراء على الزمن أو رمية طائشة لغاية المكان السخيفة، أنا صاروخ نووي يود أن ينفجر ليرتاح من نفسه، وقد أكون قاتلاً بالنسبة للطبيعة، ربما أنا قاتل، قتلت شيئاً ما مجهولاً فصار المعلوم لعنةً ثقيلة علي، وربما أنا ضحية الكون، كان من المفترض أن أولد في كون آخر أو في العدم، لكن الكون سرقني ليعذبني، فعذبني حتى تعودت على ذلك وصرت أنا أيضًا أتفنن بتعذيب نفسي.

استدارت تنظر إلي، كانت في صراع بين كبريائها ورغبتها بالعودة إلي، أكملت أقول:

- بائس، منعدم، محترق، ركام في مدينة لم تكنس منذ آدم، بيت مهجور في قرية مرَّ بها الموت، طفلة تنتظر حتفها

تحت خراب بناية وقعت مع زلزال بسيط، فيلسوف يتم جره إلى حبل الإعدام، عاشق يود أن يفهم الحب أو ينتحر، وحيد، وحيد أكثر من الله الذي كان موجوداً في قلبي قبل أن يموت، أشعر بشعور المقذوف به في العدم، لا لغة، لا ملامح، لا هوية، لا صوت، لا حركة، لا حياة، أشعر باللاشعور المتمرد على سلطة الشعور، أشعر بالعدم، العدم الذي يحول الإنسان إلى قنبلة، ربما لا أشعر بشيء، ربما لا أحد هنا، ربما لا شيء.

خطت خطواتها الأولى نحوي، ثم توقفت مجدداً، ثم أكملت نحوي وجلست على الكرسي الذي بجانب السرير، قلت وما قلته أشعرني بالنجاة والوقوع في المأزق معاً

- لا أحد يعني شيئاً للآخر، كلنا محض وسائل، كل من يفهم ذلك لا يعود قادراً على احترام النفس البشرية، وأنت، اذهبي إلى حياتك ونفسك.

فكرتْ لبضع لحظات ثم قالت بصوتٍ مرتبك وحنون

- ما بك؟

أفرحني سؤالها، شعرت بالعودة إلي، ها أنا أدنو نحو غايتي مجدداً، قلت:

- متعب عزيزتي، متعب، أنا شخص مريض بلعنة غريبة، ثمة شرخ غريب بيني وبين الطبيعة، شرخ لم يمتلئ رغم كل محاولاتي في الوصول إلى آخر الألم، أتعلمين أنني شخص لا يستطيع البكاء، هل يمكن تصور شخص يعيش

ألماً عنيفاً وعميقاً ولا يبكي، ربما اعتقد أنني أعلى من جزئي الحيواني الطبيعي، وقد أكون مكتظاً باعتقادات متعالية، لكن رغبتي بالبكاء لم تتلاشى قط، كنت دائماً أريد أن أبكي، دائماً انتظرت صوتاً من لغة عيني، وثمة عقرب في داخلي أريد قذفه إلى الخارج، إنه المانع الأول للجمال، لا استطيع الشعور بالجمال، يالفظاعة الألم حين أعرف أنني بعيدٌ مسافةً كبيرة عن الجمال والدموع هي الخطوات إليه، الدموع التي تلتهب في الداخل وتحرق كينونتي وكل اعتقاداتي المتعالية، يالفظاعة هذا الألم، لأننا نتألم كثيراً خلقنا الآلهة ورمينا عليهم أوجاعنا وألآمنا، لكن أي إلهٍ سيحمل أطنان أوجاعي وأنا خالقه، هل يمكن لمفهوم متعالي مصنوع خيالياً أن يحمل وجعاً طبيعياً، ربما وحدهم الشعراء يصنعون آلهة قوية لذواتهم، لكنني أيضاً لم أكن شاعراً أعمى حتى أفعل ذلك، ومن جهة أخرى أنا من الفئة المعذبة التي تحتاج إلى لعبة هروب محترفة مصنوعة بأيادي من هم فوقنا إلا أنني لم أكن أقل ذكاءً حتى أتقبل كذبةً قد تشبع ظمأنا نحو الطمأنينة لكنها في الوقت ذاته ستكمل ديمومة هذا العذاب إلى الأبد، أي أنانيةٍ غريبة جعلتني لا أصنع إلهً ولا أصبح شاعراً ولا أستطيع البكاء رغم شدة الألم، أيوجد ألم أفظع من ذلك؟

- لكن، لكن من المؤكد أن ثمة شيء يستحق العيش من أجله

دهشني ردها، أين كان كل هذا الذكاء؟ لقد وضعتْ يدها على المكان المناسب للقول، قلت لها:

- منذ ولادتي وإلى الآن لم أتعلم كيف يمكن للمرء أن يتمسك بنفسه، ولم أجد شيئاً حقيقياً وقوياً يدفعني إلى التمسك بي، أنا غريب عني، بعيد عني بعداً مهولاً، أكاد لا أجد فيَّ قيمةً يستحق التفكير فيها، أنا خالي من الحياة، داخلي عراء فارغ، لا جهات ولا نظام ولا مكان ولا زمان، لا قواعد، لا ضوابط، لا أصوات، لا أضواء، أظن لا يوجد اللاشيء أيضاً إن كان اللاشيء شيئاً يمكن تحديده والتحدث عنه، فكيف أيتها البريئة أن يقال لكائن مثلي أن ثمة شيء في الحياة يستحق العيش من أجله، ربما ما يستحق العيش من أجله هو الموت ذاته، لقد فقدت ميزة أن أبقى ضمن النظام، ربما فقدت ذلك قبل ولادتي، أي كنت مشوهاً قبل أن أمرض بهذا المرض، وكذلك لم أقتنع أن هذا التشوه قبيح، أي أن الوجود هو مرضي الأول.

بدأت تهذي على حكيمٍ يلفظ أنفاسه الأخيرة

- لكن لا يمكن تقبل ذلك، لا يمكن المضي في ذلك، حتماً ثمة بعد آخر لما أنت فيه، اعذرني أنا مشوشة، لم أعد أفهم، كأنك ترى ما لا أراه، ما تراه بشع، لا أفهم، كأنك تنفي العدالة؟ حسناً لكن حتماً ثمة ما يمكن الوثوق والتشبث به، لم لا تتمسك بنفسك؟

- من أجل ماذا؟ لم أجد سبباً، ولم أجدني، إنني أخفي نفسي خلف الكلمات حتى لا أرى كيف أختنق بالعجز وأنا لا أستطيع الوصول إلي، لا شيء، لا شيء يمثلني، ولا حتى أنا، أعود إلي فقط حين أكتشف إنني ميت لامحالة، لكنها بضع لحظات عابرة سريعة، ثم أعود غائباً عني،، إنني كتلة من التناقضات، ففي تلك اللحظات العابرة أشعر بالأسى حين أتذكر إنني أموت دون أن أنظر في وجه قاتلي، وأنه لا يوجد قاتل أصلاً.

توقفت قليلاً ثم قالت:

- لم أجد علاجاً لألمي حتى صار ألمي علاجاً لألمي

اندفعت متفاجئة

- ماذا قلت؟ الموت؟

لم أفهم ما الذي فاجأها

- نعم!

صمتت متعجبة لبرهة ثم تمتمت

- آه حسنا

لم أتوقف عند صدمتها رغم عدم فهمي لها، لكنني شككت بوجود شيء مهم خلف ذلك، عدت إلى حديثنا، أردت التحدث عن أي شيء فقط لتبقى

- أما عن العدالة، فكثيراً ما قلت أن الطبيعة غير عادلة، ولا الحياة كذلك، كررت ذلك كثيراً مع نفسي أو مع الآخرين، لكن لم يرى أحد ما كنت أراه، كانوا يظنونني أهذي، كانوا يظنونني أحسدهم، نعم كنت أهذي وأحسدهم، كنت أهذي لأنني دائماً وضعت رأسي مع رؤوس الضحايا، اختنقت معهم، بكيت معهم، مت معهم، وكنت أحسد الآخرين لأنهم امتلكوا طاقةً مشوهة تمنعهم من رؤية الاختلال الواضح في نظام الحياة، كانوا يضعون أنفسهم في أماكن تمنعهم من الرؤية، غبائهم كان ميزة إيجابية في بقائهم مدة أطول في ميدان العماء، لا يمكن أن تكون الحياة عادلة، فالعدالة مفهوم نحن خلقناه حتى نشعر بوهم السلام، لكننا في هذه النقطة لا ندري إننا ننكر على أبرياء وضحايا هذا النظام فواجعهم وعذاباتهم في سبيل وهم سخيف يجعلنا بعيدين كل البعد عن الإحساس بالعدالة المنبثقة من الشعور بالآخر، أية عدالة أن تقول للفقير إنه كاذب في جوعه وحرمانه الفظيعين، أية عدالة هذه وأنت تتحدث عن حرب ما بطريقة باردة دون أن تسمع صراخ الدم تحت ركام المدن، ها أنا الآن أتقبل لاعدالة الحياة لكنني أريد أن أقف مع المظلوم والمعدوم والهامشي والضحية فهذه العدالة التي أريد تحقيقها، ربما على أحدنا أن يرغب في الخير العام أكثر من نصره الخاص، لكن خلف كل ذلك كنت أتألم، أتألم بعنف لأنني ضحية هذا النظام غير العادل أيضاً، إن الألم يجعلني احتقر البشر والحياة والطبيعة، لا يوجد تعبير صادق عن الألم إلا الاحتقار، الدم الذي يغلي سينفجر في نهاية الأمر،

أعرف أن ذلك لا يغير شيئاً لكن البوح بحد ذاته قيمة، أنظر إلى الحياة ينظر إلي الجحيم، أي قوةٍ أحتاجها لأقاوم الجحيم الحي في الذات والأشياء، أي قوةٍ تستطيع محاربة سلطة الجحيم حين لا يوجد حيز صغير لأي شيء آخر غير هذا الجحيم الفظيع، كل الأبواب مقفلة، السماوات مرايا مكسورة، الأرض تبلع أفكاري الحيوية، ما هذا العبث الذي خدعنا بمقاومة الجحيم بفكرة أن نشغل العقل رغم كون الألم هو المركز، هو المتحرك الوحيد في نظامي الصحي والحيوي، كم إلهاً علينا خلقه لتزييف هذا الجحيم؟ ربما هو جحيمي وحدي، هذه بصيرتي، هذه حياتي، لم أولد في النظام البشري والطبيعي، يمكن القول بعبارة أخرى أنني لست بشرياً بما فيه الكفاية ولست سوياً أيضاً، صنفت في فئة الضحايا والمهمشين، رُميت خارج القلعة دونما سبب، ضربة نحس أو عبث أو قدر، سميه ما شئت، هو الحدث ذاته، لن يتغير شيء، محض صدفة، غلطة إلهية، خلل في العدالة، نقص في الحق، أو هكذا هي الحياة بالمجمل لكن الذين داخل النظام عميان بالفائدة الضيقة والاعتقادات التي تبرر صحة هذه الفائدة، لهذا لا يرون ما أقوله الآن، أنا أتحدث عن نظرة إنسان بريء تلتقي بوجه القاتل قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

لم أكن مرتاحاً وأنا أتحدث، كانت حركاتها تثير الشك والريبة في نفسي، شعرت بالانقلابات التي كانت تحدث في داخلها، شيء ما غير قوانين اللعبة، شيء ما دعم رؤيتها

حول ما يحدث أو كوّنها، الرؤية التي بطبيعة الحال أجهلها تماماً، نظرت إلى وجهها اللطيف الطفولي، كانت منشغلة بأفكارها فما كان مني إلا أن أخرجها من منطقتها التي ترعبني بالحديث والحديث، قلت مكملاً قضية العدالة

- من المؤسف ألا توجد عدالة لكن الأكثر غرابةً أن توجد حقاً، أصلاً يا سيدتي البشر غير مهتمين بالعدالة، هم فقط يرغبون بملء وتفريغ نفوسهم.

- أنت كن عادلاً، افعل شيئاً

- ما الذي يمكن فعله، القضية أكبر من الفعل، إنها ليست مشكلة إنما معضلة، وأنا لست بإله، مليون إلهٍ لن يعالج ما نحن فيه، فكرت طيلة حياتي في قضايا وأفكار كثيرة لكن أستطيع أن أقول إنني كنت أفكر في العدالة فقط، أو هذه الفكرة هي التي استطاعت أن تجمع وتحتوي كل أفكاري وتصوراتي، حتى فكرة الله هي تجلي متناقض لفكرة العدالة، تجلي يزيد العدالة جدلاً وغرابةً، إذ شعور السر يكبت فينا رغبةً النظر في نسق العدالة أو التحقق منها، رغبة أن نعرف ماذا يوجد في عقل الله أو كيف نحقق العدالة أو ما هي العدالة أصلاً، ومن جهة أخرى هذا الشعور يحقق لنا ارتباطاً قوياً بالطبيعة، وبناءً عفوياً لنسق العدالة، بالتالي نفسيةً مستقرة، بالتالي حياةً سهلة وسريعة.

ولأنها لم تنطق بحرف بعد كل هذا الكلام أكملت أهذي

- آه كيف تحدثت كل هذا الكلام، من كان ينطق؟ قد لا يكون أنا، أشك كثيراً إنني أنا هو أنا، بعثرة، فوضى، لا أستطيع نطق فكرة كاملة، هل توجد فكرة كاملة سيدتي؟ كان علي، حتى لا أختنق، أن أقول شيئاً ما عن شيءٍ ما، هذا يعني إن كل ما قلته غير ناضج، لا أخفي عنك إنني أحب أحياناً أن أجلس مع نفسي بلا لغة، فهذا ينقذني من أن أكون موجوداً، هل علي أن أبقى صامتاً إلى الأبد أم ثرثاراً إلى الأبد، كل ما أصمت عنه يتحول إلى حكمة وكل ما أثرثر عنه يتحول إلى نقمة، وأنا في الوقت ذاته لا أريد أن أكون حكيماً ولا ناقماً،

إنني أقترب وأبتعد، أرى الموت في أنفاسي ولا أراه، أفجر الخيال وأجمده، أفعل كلا الضدين، أستعمل كلتا الإرادتين، أعيش في هذا التناقض المهيب أكثر من عيشي في الحياة، وكأنما لم أولد هنا، وكأنما كونٌ آخر تكفل في رعاية كينونتي تحت سلطة فيزيائية، إنني أنا ولست أنا، وهنا مقبض باب الهاوية السحيقة، السقوط في عراء الصخب بين الظلال والأنوار، في معركة اللايقين الأبدي، مع آلهة الجنون.

صمت قليلاً ثم أكملت..

- انتظر يا عزيزتي اليوم الذي سأكون فيه أحداً آخر، قد يكون غريباً أن يرغب شخص ما في أن يكون شخصاً آخر، إلا أنني تجاوزت هذه الغرابة الأنانية بقدر ما كرهت ما أنا عليه، ترينني، ترين ما أنا فيه، إنني أتحدث عن وعيي بالأشياء، لا عن الأشياء، أتحدث عن سياسة نظامي

الفكري، إن الأمر برمته في الأخير مجرد نظر، أتمنى أن يكون ذلك صحيحاً، أتمنى أن تغلبني سياسة فكرٍ جديدة، أتمنى أن أخلق نوعاً جديداً من البشر من نفسي، نوعاً يستطيع تجاوز ما أنا عليه بسهولة.

فتحت ذراعي طالباً منها عناقاً، نظرت إلي بحيرة وحذر، لم أفهم ما خلف هذه النظرات، مرت عدة لحظات وهي ساكنة تنظر إلي برفضٍ غريب، تفاجأت، ماذا يحدث لها؟ طبطبت بكفي على السرير لتأتي وتتمدد بجانبي لكنها أيضاً لم تعبر عن أي ردة فعل

قالت بحذرٍ غير بريء

- ماذا عن الله؟ هل تؤمن به؟

توقعت هذا السؤال لكن لم أتوقع مجيئه في هذه اللحظة الحرجة، شعرت بأن الطاولة قد انقلبت علي، كأنني لم أعد المسيطر عليها، كأن النهاية ستكون غير محتملة وخارجة عن تمنياتي وإرادتي وقوتي، لم أعلم ماذا علي أن أفعل وأنا أجهل ورقتها السرية القوية، ولكن وفي الأوقات الحرجة ليس على اللاعب سوى أن يكون مرناً ودبلوماسياً ولطيفاً، وأيضاً حذراً وانتهازياً منتظراً الفرصة المناسبة للانقضاض على الخصم، لذا وجدت من المناسب أن أجرها بالحديث نحو ما تخفيه بشكل غير مباشر، والسؤال الذي طرحته مناسب للبدء، قلت بعدما أشعلت سيجارة

- لا يطرح سؤال الإيمان على إنسانٍ عانى أكثر مما ينبغي ونظر أكثر مما ينبغي

- ألا يعالج الإيمان معاناتنا؟

- أوه لقد أثقلنا العالم باعتقادات وإنتماءات وجماليات جماعية مزيفة حتى لا ننظر إلى الواقع، والإنسان حيوان يريد الطمأنينة لكنه يجهل السم المدسوس في كل طمأنينة، لا، لا يعالج، هو مخدر خطير، الإيمان مكانٌ في النفس تتكدس فيه التراكمات، مكانٌ مصيره الانفجار بسبب صغر حجمه أمام وقائع وحقائق الواقع، ربما كنت مؤمنا يوماً ما، ذاك الإيمان الموروث الساذج، في كل الأحوال الإيمان نداءٌ نكوصي مضحك، ثم لم أعد ذاك المؤمن، لم أعد طفلاً يبحث عن ثدي أمه وظل أبيه، أما الله فقد رحل.

شهقت منفعلة

- ماذا؟

كانت شهقتها شبه كاذبة، أو لم أصدقها، أو أخذني الشك

- استيقظت مرةً على صخبٍ هز المدينة كلها فولولت سألاً إلى أن قال لي أحد المجانين أن الله قد رحل

عاد إلى وجهها هدوء ما بعد العاصفة، وقالت بنبرةٍ ساخرة

- وهل صدقت ذلك؟

- رأيته بأم عيني كيف يرحل

عادت مصدومة، وجهها لا يفسر، أتتخيل المشهد أم تفكر في ما وراء الكلام؟ قلت بعد أن فهمت من وجهها شكها بمصداقية ما أقول

- وحدهم الآلهة يرحلون، رحيله كان مفجعاً لي، بكيت كثيراً، ما كان يجب أن يرحل، وهو أخر ما تبقى لنا منا

- لكنه الله!

- تشعرين بضرورة وجوده لأنه لا معنى للضرورة الوجودية دون وجوده، هكذا وضعه في عقلك، أما الضرورة الوجودية فهي في وجودك أنت، أنت وحدك.

- ليس وجودي فقط، بل وجود الكون

- الكون موجود لأنه موجود، هو مرتبط بنفسه فقط، والضرورة خاصية نرميها على ما نكوّن معه ارتباطاً شعورياً، وشعورنا بالحاجة ومشاعر مثل الضعف والخوف والقلق فرضت علينا شعورنا بضرورة وجوده وكذلك وجود الكثير المخلوقات والحالات الخيالية، وحاجتنا لوجود الشيء لا يعني أبداً بإنه موجود.

فكرت قليلاً ومع ابتسامة فيها شيء من المكر، ثم قالت

- ماذا عنا؟ أقصد ثمة نسبة كبيرة من البشر لا يستطيعون العيش دون الله، ثم على المرء الذي لا يستطيع خلق ضرورة لوجوده أن نشعره بضرورته.

- على كل مرء أن يصل إلى ضرورة وجوده بنفسه، في كل الأحوال غيري أحرار بما يؤمنون.

همهمت متفكرة شكاكة

- هكذا إذن!

لاحظت تغيراً في شخصيتها، أو صفات جديدة كنت أجهلها

- إن الله حتى يكون موجوداً يجب أن أرغب بوجوده، أي إن رغبتي هي التي تخلق الله، وعدم رغبتي تلغي وجوده، إنه موجود في خيال المرء ما دامت الرغبة مرتبطة به في كل ما يفعله، وما أن يحدث خلل بين الرغبة وفكرة الله أو بين الرغبة والعالم حتى يكتشف المرء أن وجود الله محض خيال مساعد لرغباته.

أتخذت من نبرة صوتها ووضعية جلوسها وتعابير وجهها دور المحقق أكثر من كونها مستمعة أو محاورة

- ولماذا أختلقنا وجود الله؟

- لقد أختلقنا وجود الكائنات السماوية من أجل لحظتين، اللحظة التي نشعر فيها بألم فظيع دون وجود عدو، واللحظة التي نشعر فيها بفرحة عظيمة فلا نجد فاعلاً رئيسياً في فرحتنا، في اللحظتين كبرياءنا البشري يحتاج إلى مساعدة ذاتية والعالم السماوي المختلق وسيلة نفسية لتخفيف ثقل وغموض الشعور، وأيضاً لكي يقنع الأسياد العمال والعبيد والبسطاء برغباتهم ومطامحهم دون رفض،

ولأن الله وسيلة لنتأقلم مع كل الظروف والأحداث والمواقف، ولكي ننسى كل ما لا نستطيع نسيانه، ولكي نهرب من توحش الوجود، وأسباب أخرى،

- كيف حدث ذلك؟

- وضعوا في عقله فكرة وقالوا له إن هذه الفكرة هي حقيقة الكون ثم قالوا له عليك أن تستسلم لها وإن لم تفعل فهذه الفكرة لديها سوط ستضربك به، ثم فرضوها قانوناً اجتماعياً ثم فرضوها قانوناً سياسياً، وهكذا حتى تحولت هذه الفكرة إلى عادة مجتمعية تاريخية، والإنسان يمكنه أن يتغذى على أي اعتقاد فقط ليحافظ على كسله النفسي اللذيذ.

- هكذا إذن

- أجزم لك يا سيدتي إنه لا يوجد في تاريخ البشرية كله خدعة ألذ من خدعة فكرة الله ولا خدعة مدمرة كخدعة فكرة الله، إنها الخدعة التي تجعلك تتلذذ وأنت تدمِّر أو تدمَّر.

- حسناً هذا جيد

على حين فجأة قفزت من مكانها، وبخطوات ذكية واثقة خرجت من الغرفة تاركة رجلاً تبتلعه الحيرة.

3

- الا زلت تطلب الموت من كل شخصٍ تتعرف عليه؟

دخل علي ضاحكاً ساخراً، لا أعرفه، يظهر من ثيابه ونظراته الحادة أنه الطبيب، أكان يراقبني طيلة الوقت حتى عرف غايتي؟! إذن؟

- وماذا يمكن أن يُطلب غير الموت!

- الحياة

-أهذه؟

- لا، بل تلك التي لا تراها، تلك التي لم تستطع بعد تقبلها

عادت فتاتي بخطواتها الواثقة، وقفت بجانبه، ابتسمتْ، كأنها توافق على كل ما يقوله هذا الغريب، إذن كانت تعرف ماذا أريد وقد وقعت أنا في المصيدة، قالت تنظر إلي

- لقد تحسن بعض الشيء، اقترب من نفسه

- أراني لازلت أنا الذي أكونه على الدوام

-لكنك..

أسكتها بنظرته، فتمتمت ثم خرجت، اقترب الطبيب وجلس بجانبي

- حسنا والآن؟

- أخبرني أنت ماذا الآن سوى ما جئت تريده

- جئت أريدك لك

- وكيف أكون لي

- بأن تطرح السؤال الذي تخفيه عن نفسه

- أهنالك سؤال لم أطرحه على نفسه، أنا كلي أشواك أسئلة، السماء كلها مرآة أسئلتي، الأرض كلها ميدان حرب أسئلتي.

- سؤالك عنك، حسناً أخبرني إذن لم أنت هنا؟

- وهل يوجد مكان أخر أذهب إليه!؟

- كل الأماكن لك، لكنك ترفض الخروج نحوك، أنت آخرهم، آخر من تبقي منهم، ألم يحن الوقت لتتقبل أنك خالد وإلى الأبد

ضحكت قائلاً

- كثيراً ما أنسى بشريتي وأحتقر هذا الجنس كنبي يتوهم حول كيف ينبغي أن يكون الإنسان، ثم بعد هذا النفور بلحظات أعرف أنني قد وقعت مجدداً في الفخ الأكبر للطبيعة، ليست المشكلة في نتائج النتائج فقط، بل في تلك البذرة السببية للوهم الفردي، كأننا مقيدون بالوهم لدرجة أن ننخدع ونخدع أنفسنا على الدوام، والآن جئت تقول لي أنني خالد، أليس الخلود هو جوهر كل الأوهام؟

- وهو أيضاً محرك التاريخ

- لو قرأت التاريخ البشري ستشعر بالخزي والعار إلى الأبد.

قلت مع ضحكة ساخرة

- الإنسان كائن قذر ولكن المشكلة الأكبر أنه لا يرى قذارته ولا يريد أن يرى ذلك

- بل سأشعر بدهشة معجزة أن أوجد وأن يكون الإنسان هو هذا الإنسان، هذا الكائن الذي وصل في الأخير إلى غايته السامية العظيمة وهي الخلود

- ما الجدوى من الخلود؟ ألا يكفينا عذاب سبعين عاماً؟

- وما الحياة بلا ألمٍ سوى جحيم ملل، وإن لم تكن لألمك صديقاً فمن عساه يراك، حتى أنت لن تراك، وإن لم تر نفسك فلن تكون للمعاناة قيمة، وإن لم تكن لمعاناتك قيمة فلن تشعر بجدوى الخلود، إن الخلود هو أن تعي جمال جدل الصيرورة، أن تعيش الأعماق بعد الأعماق

- أأنت طبيب أم فيلسوف؟

- أنا مختص بأمراض ما بعد الخلود

أحقاً صرنا خالدين؟ أعرف ذلك، لكن كيف يمكن ذلك؟ كيف أتحمل غياب الموت، قال لي وكأنه سمع ما قلته لنفسي

- أيها القديس خورشيد، يا أخر القديسين، ويا آخر من كان يؤمن بالله، إنما الأسئلة مفاتيح

خرج من الغرفة وهو يقول

- أنت هنا منذ عقود وقد حان وقت الخروج

4

لا أستطيع معرفة شعوري، خليط من المشاعر المتناقضة تنافس على الصدارة، أيمكن أن أولد مجدداً؟ أن أصبح شخصاً آخر غيري؟ كل ما أعرفه الآن أنني ورقة بيضاء لم يكتب عليها شيء، وعلي أن أبدأ من البداية، من " من أنا؟" ألست محقاً في الهرب من هذه الصدمة كل ذاك الوقت؟ يالفجيعة الصدمة، كم هي عنيفة، أليس مؤلماً ومدهشاً أن أراني فارغاً بعد عمرٍ من التجربة؟ هل علي أمضي مع هذا الزمن الغريب أم أعود إلى هاوية الصدمة وأكمل جر الآلام خلف غيابي تحت ظلام اللغة؟ لم أعش حياةً جيدة، أو هكذا أراها بمعاييري، ثم يفرض علي أن أعيش حياةً أخرى، بل وحياةً لا نهاية لها، كأن تعيد معدماً وتعدمه مراراً وتكراراً، هل علي أن أحكم وأمضي في الأحكام أم أترك الأمور لما بعد التجربة؟ ماذا عن الآخرين؟ كيف مروا بهذه التجربة؟ أقصد أصحاب النفوس وعيون

الثاقبة المتعبة من التفاصيل والأسئلة، ثم ماذا عن الآخر في الخلود؟ ماذا عن العلاقات؟ ماذا عن الحب؟ أسيصبح فعلاً أبدياً؟ ماذا عن الواقع؟ ماذا عن الزمن وصداه وسيرورته؟ ماذا عن العمل والحضارة؟ ماذا عن الشعر والأدب؟ ماذا عن الذين ماتوا قبل أن يرتكب الخلود فعلته؟ ماذا عن السعادة؟

دخلت علي ممرضتي المخادعة بابتسامة جميلة وكأنها تدعوني إلى حفلة خلود العالم، شعرت بفتنة رغبةٍ ما، لم تقل شيئاً، نظرت إلي تدرس مشاعري من ملامحي، ابتسمت لها دونما غاية

- ما رأيك بالخروج قليلاً من نفسك؟

لم أفكر، بادلتها فوراً

- أهي رياحٌ منعشة؟

هزت رأسها فرحة، لم أقاوم، شاركتها فرحتها الغريبة، تركت نفسي للذهاب نحو مجهولها

- أنا جائعة، ما رأيك بمشاركتي الطعام؟ المطعم قريب

قمت عن السرير وأنا أبكي

- أريد أن أمشي، أن أمشي كثيراً، وقد لا أتوقف